سلسلة النور الخالد

النبي المرتقب

الانتظار والقدوم

١

المؤلف: محمد فتح الله كولن

المترجم: أورخان محمد علي

سِلْسِلَةُ النُّورِ الْخَالِدِ ١


بسم الله الرحمن الرحیم

سلسلة النور الخالد ١



الانتظار والقدوم

المؤلف : محمد فتح الله كولن

المترجم : اورخان محمد علي

ترجمة كتاب (Sonsuz Nur) عن التركية



الطبعة الثالثة: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م

الترقيم الدولي: I.S.B.N: ٩٧٥-٣١٥-١٧٣-X

الهاتف: (٩٠٢١٦٣١٨٦٠١١+) فاكس: (٩٠٢١٦٣١٨٤٢٠٢+) استانبول / تركيا

مركز التوزيع/فرع القاهرة: ٧ ش البرامكة - الحي السابع - م. نصر - القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٠٢٢٢٦١٩٢٠٤+

موقع الأستاذ م فتح الله كولن على الإنترنت:

www.ar.fgulen.com

بين يدي سيرة المصطفى ﷺ

كلما رأيت كتابا جديدا فى سيرة المصطفى خـاتم الأنبيـاء والمرسـلين، صاحب الخلق العظيم؛ محمد بن عبد الله ﷺ، تواردت على خواطرى العديـد من الأفكار.. منها – على سبيل المثال –:

● أن سير العظماء وتواريخ القادة وأخبار المصلحين والعلماء والمفكـرين والفلاسفة عبر كل الحضارات وعلى مر التاريخ تكتب –هذه السير– وتخـتم، ولا يعود فيها مجال للمزيد أو الجديد.

لكن سيرة رسول الله ﷺ، قد كانت ولا تزال وستظل ميدانا مفتوحا للتأليف والإبداع الذي يكتشف في هذه السيرة العطرة المزيد والجديد.. حتى لكأنها نبـع متجدد وكتاب مفتوح يكتشف فيه العقل المبدع ما لم يكتشفه الأسلاف.. وذلك بقدر ما يتحلى هذا العقل بالوعى والإخلاص والحب والولاء.

حدث ذلك على مر تاريخ الإسلام، في الإطار الإسلامي، ومن قبل نفـر من غير المسلمين. فرغم الكم الهائل من الكتب والمجلدات التي كتبت في هـذه السيرة العطرة، كانت ولا تزال معطاءة للمزيد من الجديد.

إذن، فنحن أمام فرادة و تميز وامتياز، اختصت بها سيرة الرسول ﷺ، وهى فرادة تحتاج إلى تفسير وتعليل.

• كذلك، وجدنا ونجد فى كل تـواريخ العظمـاء والقـادة والعبـاقرة والمصلحين تناقص أتباعهم ومريديهم وعشاقهم ومحبيهم مع تـوالي الـسنين والقرون، بمن في ذلك الرواد الذين تكونت من حـول دعـواتهم ومبـادئهم وسيرهم ديانات وضعية. فأتباع " مانى " (٢١٥ - ٢٧٦م) وأتباع "زرادشت" (٥٨٣ ق.م) يقتربون الآن من الزوال. وأتباع "بوذا" (٥٦٦-٤٨٦ ق.م) هم الآن أقل بكثير جداً مما كانوا عليه فى سالف الأزمان.

بل إن هذا القانون قد سرى حتى على أتباع الرسل الذين سبقوا رسـولنا ﷺ، على درب النبوات والرسالات. فأتباع موسى عليه السلام -مـن اليهـود- لا يتجاوزون خمسة عشر مليونا، أبعدت العلمانية أغلبهم عن الروح الديني الذي جاء به كليم الله، ولم يبق لهم من اليهودية إلا العصبية والعنصرية التي لا علاقة لها بما جاء به موسى عليه السلام.

وكذلك الحال مع أتباع المسيح عيسى بن مريم عليه السلام. فالشرق الذي ظـل قلب العالم المسيحي لعدة قرون، قد غدا منذ قـرون طويلـة قلـب العـالم الإسلامي. وأوربا التي غدت لقرون عديدة قلب العالم المسيحي، لا يؤمن فيها اليوم بوجود إله سوى ١٤ % من السكان!.. ولا يذهب إلى كنائسها الـتي خانت كثير منها نصرانيتها سوى ١٠ % من الأوروبيين!!..

أما الإسلام؛ وأحباب وأتباع رسول الله ﷺ، الذين يحبونه حتى يحبهم الله ﴿قُلْ إِنْ كُنتُم تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِر لَكُمْ ذُنُوبَكُم وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيم﴾ (آل عمران: ٣١).. والذين يطيعون الرسول كي تتحقـق طاعتـهم لله سبحانه وتعالى ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ (النساء: ٨٠) فإنهم الاستثناء

الوحيد -عبر التاريخ والديانات- من هذه الظاهرة، التي مثلت قانوناً لا يتخلف إلا في عالم نبينا ورسولنا، عليه الصلاة والسلام. فأتباعه وعشاقه ومريدوه، الذين يتخذونه الأسوة الحسنة والمثال المتسامي، هم وحدهم الذين يتزايدون ويتكاثرون، وتباهي بهم الدنيا، كما سيباهي بهم رسولنا يوم القيامة، إن شاء الله!..

وتلك هي الأخرى، ظاهرة فريدة، تحتاج إلى تفسير وتعليل.

• وعبر تاريخ دعوات الإصلاح، ومشاريع النهوض، وفلسفات التقدم، والمبادئ التي تركت بصماها في مسيرة التحرير والتغيير للأمم والشعوب، كان وهج هذه الدعوات والفلسفات والمبادئ يقل شيئاً فشيئاً، كلما تغير الواقع المعيش، وتبدلت العادات والتقاليد والأعراف.. بل لقد أصاب هذا التراجع حتى الكتب السماوية التي جاءت بها النبوات السابقة، عندما استحفظ عليها الناس فلم يحفظوها.. فنسوا حظا مما ذكروا به.. وبدلوا الكلم من بعد مواضعه.. وكتبوا بأيديهم ما كذبوا، فقالوا هو من عند الله!..

وهنا -أيضا- نجد أن دعوة رسولنا ﷺ، بدءاً من الوحي المعصوم والمحفوظ حفظاً إلهياً.. إلى السنة المطهرة، التي مثلت البيان النبوى للبلاغ القرآني.. نجد هذه الدعوة استثناء فريدا من هذا القانون الذي سرى على سائر الدعوات والفلسفات والمبادئ والنظريات والكتب. فهذه الدعوة -في وحيها الإلهي- كتاب مفتوح لا تنقضي عجائبه، فيه نبأ الأولين وخبر الآخرين. والكليات والإشارات والجوامع التي تتكشف وتتجلى -بمرور الأزمان وارتقاء العقول وتقدم العلوم- آيات ومعارف وسنناً كونية واجتماعية مبثوثة فى الأنفس

والآفاق، حتى لكأنها المعجزات المتواليات تترى من هذا الإعجاز الإلهي والنبوي الذي جاء به المصطفى، عليه الصلاة والسلام.. تديم التحدي للجاحدين، وتضاعف الطمأنينة لقلوب المؤمنين. وهذا التوهج المتزايد والمتعاظم -هو الآخر- ظاهرة فريدة تحتاج إلى تفسير وتعليل.

* * *

فما هو تفسير هذه الظاهرة الفريدة التي تميزت وامتازت بها سيرة الرسول الكريم ﷺ، ودعوته على سائر السير والدعوات؟

إن الإجابة المفصلة على هذا السؤال تحتاج - ولا شك - إلى مجال أوسع بكثير من هذا الحيز الحاكم الذي نحن فيه. لكننا نستطيع -في هذا المقام- أن نوجز إشارات إلى عدد من المعالم التي تمثل رؤوس أقلام للإجابة على هذا السؤال، وذلك من مثل:

- أن سير العظماء والقادة والمصلحين تكتب وتختم وتكتمل فصولها وتتم وقائعها، لأنها سير بشر، يعيشون في نطاق عالم الشهادة لا يتعدونه، ذلك العالم الذي تدرك العقول الإنسانية كنه حقائقه، ومآلات دعوات الإصلاح البشرية والفلسفات العقلية، التي أبدعها وطبقها هؤلاء القادة والعظماء.

بينما سيرة رسولنا ﷺ -وهو بشر حرص القرآن الكريم على التأكيد على بشريته- هي سيرة "بشر.. يوحى إليه".

ففي سيرته ودعوته وسنته وشمائله ارتبطت البشرية بالنبوة.. والعادة بالإعجاز الخارق للعادة.. والاجتهاد بالعصمة.. والأرض بالسماء.. والنسبي بالمطلق.. والعلم الجزئي بالعلم المحيط.. وعالم الشهادة بعالم الغيب.. والزمني بالخلود..

فغدت سيرة البشر الرسول -هنا- حاملة من المطلق الخالد ما يجعلها دائمة العطاء، ومستعصية على الختم والانتهاء وطي الصفحات وجفاف الأقلام.

• كذلك، تميزت سيرة رسولنا الكريم ﷺ، حتى على سير الخالين من الرسل والأنبياء، عليهم جميعاً صلوات الله وتسليماته، بأنها سيرة النبوة الخاتمة والرسالة الخالدة، فاستمر عطاؤها، ومن ثم ظل كتابها مفتوحا دائما وأبداً لاكتشاف السنن والقوانين والدروس والعبر والعظات. بينما كانت رسالات الخالين من الرسل، وكذلك معجزاتهم، خاصة بقوم بعينهم، وزمن بعينه، وحجة على من شهد تلك المعجزات المادية التي أدهشت العقول.

على حين كانت معجزة القرآن الكريم مستنفرة للعقل دائما وأبدًا، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.. وكانت السنة النبوية المطهرة بيانا نبويا لهذا الإعجاز القرآني الخالد، الأمر الذي جعلها -مع السيرة النبوية- كتابا مفتوحا على ألوان لا تحصر من الإعجاز العلمي والقيمي والإصلاحي، الصانع للإنسان السوي وللمجتمع السوي، عبر الزمان والمكان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. إنها سيرة الرسول الخاتم، صاحب الشريعة الخالدة.. إمام أولي العزم من الرسل.. والمتفرد بالرسالة العالمية.. وبإقامة الدولة وصنع الحضارة، مع تبليغ الدعوة الدينية.

فدينه قد تفرد بتأسيس الدولة، وتوحيد الأمة، وتنظيم الاجتماع، والتحريض على بناء الحضارة. ودولته قد غدت الحارس للدين، الذي تسوس به اجتماعها المدني.. كما ضمن خلود هذا الدين لحضارته خلوداً تفردت به عن سائر الحضارات.

• ولهذا الكمال والاكتمال الجامع -في الدعوة الإسلامية- بين الدين والدنيا والأرض والسماء والاجتهاد والعصمة.. والدين والدولة.. والدنيا والآخرة.. والفرد والأمة.. والتكاليف الفردية والاجتماعية.. والعلوم الشرعية والمدنية.. والعقل والنقل والتجربة والوجدان.. والتصديق لما سبق من الكتب والرسالات مع الهيمنة والتصحيح والإكمال لهذا الذي سبق من الكتب والرسالات...

لهذا الكمال والاكتمال في الدعوة الإسلامية، فلقد تميزت سيرة رسول هذه الدعوة، عليه الصلاة والسلام، التي هي سيرة "البشر... الرسول"، بأنها سيرة الإنسان الكامل، بكل ما في هذا الكمال والاكتمال الإنساني من أبعاد تجعل ختم الكتابة لسيرته هذه أمراً عصياً على التحقيق..

فهو الذي وجده ربه فقيرا فأغناه.. ومع ذلك كان انحيازه إلى بساطة عيش الفقراء وحياة المساكين طوعا وشوقا واختيارا.

وهو الذي تحمل-صابرا ومصابرا- كل إيذاءات الشرك والنفاق، ومع ذلك بلغت به الرحمة والرأفة إلى الحد الذى جعله رءوفا رحيما بالذين آذوه وآذوا صحابته، فأطلق لهم عنان الحرية فى لحظات انتصاره الأكبر.. ودعا لهم بالهداية فى لحظات الذروة من الإيذاء.. رجاء أن يخرج الله من أصلاب الغلظة من يرق قلبه لنعمة الإيمان بالإسلام، فيهتدي بسراجه المنير.

ومع أنه قد حمل هموم إقامة الدين، وتأسيس الدولة، وصلاح الدنيا، وعبء تغيير العالم.. فلقد تكاملت فيه كل صفات الإنسان الكامل. فكان بشوشا، يمزح ولا يقول إلا حقا.. ويسامر أصحابه.. ويداعب زواره.. ويخدم

أهله.. ويقدم اليسر على العسر.. يحب أن تؤتى رخص الدين كما يحب أن تؤتى عزائمه.. ويحرص على طلب الجمال فى محيطه، ليستمتع به ويعلم الناس الاستمتاع بنعمته، حتى ليجعل من صلاة الاستسقاء مناسبة يدعو الله فيها: "اللّهم أنزل علينا فى أرضنا زينتها".. ومن دعاء السفر مناسبة يستعيذ فيها بالله من كآبة المنظر.. ومن مسجد النبوة مسرحا للفنون ومتعة الترفية الحلال.. ومن الأعياد والأعراس مناسبات للزينة والفرحة واللهو الحلال الذى يجدد الملكات والطاقات عند الإنسان.

حتى ليروى "أنه لم يكن ريح أطيب من ريحه، وكأن عرقه اللؤلؤة!.."

وهو -مع ذلك- الذى يقف بين يدي مولاه -في الصلاة- حتى تتورم قدماه.. ويجعل من الرفق بالإنسان والحيوان والطبيعة مناسك يتقرب بها الإنسان إلى الله.

وهو الذي يغضب لما يغضب الله.. وإذا اضطر إلى الجهاد القتالي-دفاعا عن الدين والوطن- كان، إذا حمي الوطيس واحمرت الحدق، أقرب المقاتلين إلى الأعداء، حتى ليحتمي به الفرسان فى ساحة القتال.

فهو الإنسان الكامل.. والرسول الخاتم.. والبشر الذي يوحى إليه.. والمجتهد المعصوم.. الذي اتصلت -في سيرته- الأرض بالسماء.. وامتزج فيها النسبي بالإطلاق والخلود.. فهو ﷺ، روح في جسد، ككل البشر، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق.. لكن روحه بعبارة الإمام محمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) "ممدودة من الجلال الإلهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليه سطوة روحانية. وهو بمنزلة العقل من الإنسان. إنه

إمام أولي العزم من الرسل، الذين ميزهم الله بالفطرة السليمة، وبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه، والأمانة على مكنون سره، مما لو انكشف لغيرهم لفاضت له نفسه، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمته، فيشرفون على الغيب بإذنه، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه، ويكونون في مراتبهم العلوية على نسبة من العالَمين، نهاية الشاهد وبداية الغائب، فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها، وهم وفد الآخرة في لباس من ليس من سكانها".

نعم، لهذا التميز والامتياز الذي جعل من الرسول ﷺ "نهاية عالم الشهادة وبداية عالم الغيب.. وعقل الإنسانية والبشرية".. ولتميز رسالته بالإتمام والإكمال للدين والأخلاق.. وبالعالمية.. وبالخلود.. وبالدولة والاجتماع والحضارة مع الدين..

لكل ذلك تميزت سيرته ﷺ، عن كل سير القادة والمصلحين والعظماء والانبياء والمرسلين.. بل وشاء الله أن تكون سيرته وتاريخ دعوته هو التاريخ الوحيد المعروف والموثق دون سير الانبياء وتواريخ الرسالات التي لم يبق من سيرها إلا ما جاء في القرآن الكريم. فكانت سيرته ﷺ، الخبر الصادق حتى في سير الخالين من الرسل، عليهم جميعا أزكى الصلوات والتسليمات.

* * *

بهذه الأفكار والخواطر أستقبل -دائما وأبدًا- كل إبداع جديد في سيرة المصطفى ﷺ. وبها أقدم بين يدي هذه الطبعة الجديدة لهذا العمل الفريد في سيرة المصطفى ﷺ، النور الخالد.. **ومفخرة الإنسانية**، ذلك الذي أبدعه العالم الجليل **محمد فتح الله كولن**. لقد أبدعه بقلب المحب وعقل المحقق، فجاء على

هذا النحو الجليل والجميل، الذي يقود القلوب والعقول إلى عشق سيد الخلق، والاقتداء بصاحب الخلق العظيم.

أمد الله عالمنا الجليل بمدد من عنده.. ونفع به وبعلمه.. وجعل هذا العمل الجليل في ميزان حسناته يوم الدين.. إنه ﷻ أفضل مسئول وأكرم مجيب.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.. وأزكى صلوات الله وتسليماته على المبعوث رحمة للعالمين.

الدكتور **محمد عمارة**

أول ذي القعدة ١٤٢٤هـ

٢٥ ديسمبر ٢٠٠٣ م

القاهرة

نبذة عن حياة الأستاذ

محمد فتح الله كولن

ولد الأستاذ محمد فتح الله گولن في ٢٧ نيسان ١٩٤١ في قرية صغيرة تابعة لقضاء (حسن قلعة) المرتبطة بمحافظة أرضروم، وهي قرية كوروجك ونشأ في عائلة متدينة، وكان والده (رامز أفندي) شخصاً مشهوداً لـــه بالعلم والأدب والدين، وكانت والدته (رفيعة خانم) سيدة معروفة بتدينها وبإيمانها العميق بالله، وقامت بتعليم القرآن لابنها محمد ولما يتجاوز بعد الرابعة من عمره، حيث ختم القرآن في شهر واحد. وكانت أمه توقظ ابنها وسط الليل وتعلمه القرآن.

كان بيت والده مضيفاً لجميع العلماء والمتصوفين المعروفين في تلك المنطقة، لذا تعود محمد فتح الله بمجالسة الكبار والاستماع إلى أحاديثهم. وقـــام والـــده بتعليمه اللغة العربية والفارسية.

● **دراسته الأولية**

درس في المدرسة الدينية في طفولته وصباه، وكان يتردد إلى (التكية) أيضاً، أي تلقى تربية روحية إلى جانب العلوم الدينية التي بدأ يتلقاها أيضاً من علماء معروفين من أبرزهم (عثمان بكتاش) الذي كان من أبرز فقهاء عهده، حيـــث درس عليه النحو والبلاغة والفقه وأصول الفقه والعقائد. ولم يهمـــل دراســـة العلوم الوضعية والفلسفة أيضاً. في أثناء أعوام دراسته تعرف برسائل النور وتأثر

بها كثيراً، فقد كانت حركة تجديدية وإحيائية شاملة بدأها وقادها العلامة بديع الزمان سعيد النورسي مؤلف (رسائل النور).

وبتقدمه في العمر ازدادت مطالعاته وتنوعت ثقافته وتوسعت فاطلع على الثقافة الغربية وأفكارها وفلسفاتها وعلى الفلسفة الشرقية أيضاً وتابع قراءة العلوم الوضعية كالفيزياء والكيمياء وعلم الفلك وعلم الأحياء...إلخ.

● نشاطه الدعوي

عندما بلغ محمد فتح الله العشرين من عمره عيّن إماماً في جامع (أُوچْ شَرَفَلِي) في مدينة (أدرنة) حيث قضى فيها مدة سنتين ونصف سنة في جو من الزهد ورياضة النفس. وقرر المبيت في الجامع وعدم الخروج إلى الشارع إلا لضرورة.

بدأ عمله الدعوي في إزمير في جامع (كستانه بازاري) في مدرسة تحفيظ القرآن التابعة للجامع. ثم عمل واعظاً متجولاً، فطاف في جميع أنحاء غربي الأناضول. وفي خطبه ومواعظه كان يربي النفوس ويطهرها من أدرانها، ويذكرها بخالقها وربها ويرجعها إليه. كانت النفوس عطشى، والأرواح ظمآى إلى مثل هذا المرشد الذي ينير أمامها الطريق إلى الله تعالى وإلى رسوله الكريم ﷺ.

وكان يجوب البلاد طولاً وعرضاً كواعظ متجول يلقي خطبه ومواعظه على الناس في الجوامع. كما كان يرتب المحاضرات العلمية والدينية والاجتماعية والفلسفية والفكرية.

ويعقد الندوات والمجالس واللقاءات الخاصة يجيب فيها على الأسئلة الحائرة التي تجول في أذهان الناس والشباب خاصة ولا يعرفون لها أي جواب مما كان يلقي بهم في مهالك الشبهة والإلحاد. فكانت أجوبته هذه بلسماً شافياً لعقول وقلوب هؤلاء الشباب والناس مما جعلهم يلتفون حوله ويطلبون إرشاداته. كما حثّ أهل الهمة والغيرة على الاهتمام بمجال التعليم. ونتيجة لذلك قام هؤلاء الذين استفادوا من أفكاره – دون انتظار أي نفع مادي أو دنيوي – وضمن إطار القوانين المرعية في تركيا بإنشاء العديد من المدارس والأقسام الداخلية، وبإصدار الجرائد والمجلات وإنشاء المطابع وتأليف الكتب ومحطة إذاعة وقناة تلفزيونية. وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي انتشرت هذه المدارس في العالم بأسره، وخاصة في دول آسيا الوسطى التي عانت من الاحتلال الروسي ومن الإلحاد الشيوعي سبعين عاماً تقريباً.

• التسامح والحوار

بدأ الأستاذ فتح الله –ولا سيما بعد عام ١٩٩٠– بحركة رائدة في الحوار والتفاهم بين الأديان وبين الأفكار الأخرى متسمة بالمرونة والبعد عن التعصب والتشنج، ووجدت هذه الحركة صداها في تركيا ثم في خارجها. ووصلت هذه الحركة إلى ذروتها في الاجتماع الذي تم عقده في الفاتيكان بين الشيخ فتح الله وبين البابا إثر دعوة البابا له. لقد آمن الأستاذ بأن العالم أصبح –بعد تقدم وسائل الاتصالات– قرية عالمية، لذا فإن أي حركة قائمة على الخصومة والعداء لن تؤدي إلى أي نتيجة إيجابية، وأنه يجب الانفتاح على العالم بأسره،

وإبلاغ العالم كله بأن الإسلامَ ليس قائماً على الإرهـاب -كمـا يـصوره أعداؤه- وان هناك مجالات واسعة للتعاون بين الإسلام وبين الأديان الأخرى.

● آثـاره

للأستاذ آلاف من شرائط الكاسيت وشرائط الفيديو المحتوية على الخطـب والمواعظ والمحاضرات. وله مؤلفات كثيرة باللغة التركية وقد ترجم قسم منـها إلى كثير من اللغات العالمية ومنها اللغة العربية. وندرج هنا فيما يلـي أسمـاء الكتب التي ترجمت إلى اللغة العربية:

١- النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية (٧ أجزاء)

٢- القدر في ضوء الكتاب والسنة

٣- أسئلة العصر المحيرة

٤- إعلاء كلمة الله أو الجهاد (روح الجهاد وحقيقته في الإسلام)

٥- طرق الارشاد في الفكر والحياة

٦- أضواء قرآنية في سماء الوجدان

٧- الموازين أو أضواء على الطريق

٨- ترانيم روح وأشجان قلب

٩- ونحن نقيم صرح الروح

١٠- حقيقة الخلق ونظرية التطور

مقدمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

لم تكن البعثة المحمدية أمراً بسيطاً أو عادياً مرت عبر أبواب الزمن، ثم اختفت بين هرج الحياة ولَغَطها... وحوادث التاريخ وحروبه... وزحام المبادئ وصُراخها... بل كانت أمراً جللاً رنّ تحت قبة السماء... وحدثاً مدوّياً في سمع الزمان... فكأن الكون كله كان يولد من جديد... ويتلبس بالوجود ثانية... ويظهر من ظلام العدم مرة أخرى... ويفتح عينيه من إغماءة الفناء... كانت ميلاداً معنوياً رائعاً شحنت فيه كل بسمة من بسمات الجمال... وكل دفقة من دفقات الخير... وكل نبضة من نبضات الحق... لقد أصبحت الأرض بعد هذه البعثة زهرة الكون... ولؤلؤة صدفته... ونور جبينه... وبؤبؤ عينه وبسمة شفتيه... كانت هذه البعثة اللحظة التي انتظرها الأزل ليناولها إلى الأبد... فإن كان الكون المنظور كله صورة واحدة فقط من صور الوجود... وانعكاساً لجانب واحد من جوانب الحقيقة المطلقة... وعالماً واحداً من عوالم الخلق، فإن البعثة المحمدية التي حملت الحق المطلق لم تكن بهذا المقياس أمراً عالميًا فقط... أو أرضيًّا فقط... أو كونيًا فقط، بل طوت بين جناحيها الأرض والكون المنظور

والعالم المشهود وغير المشهود. ذلك لأننا إن أدركنا أن البعثة المحمدية كانت تعكس الحقيقة الإلهية الأزلية وتنطق بها وتحملها، وقلنا إن شموليتها وسعتها تتجاوز الأرض والكون فإننا لا نقول شططاً.

لذا، ألا تعجب من المسلم الغافل الذي يترك عوالم الشموس والخلود هذه ليلهث وراء أفكار أرضية محدودة المحتوى وقصيرة العمر... محرومة من العمق والأصالة... تسقط كأوراق الخريف في أول هبة ريح... غافلة عن الحقيقة الإلهية العظمى... مقطوعة الصلة عن روح الإنسان وقلبه... وعن أشواقه ووجده... تنتهي مع الإنسان على أبواب القبر... ولا ترافقه في رحلته الأبدية، ثم تثقل كاهله يوم القيامة.

ولكن البشائر تترى الآن... لقد بدأت أيام الغفلة بالانتهاء... وبدأ مخاض ميلاد جديد حافل بالألم... مخاض ميلاد المسلم مرة أخرى... شجرة الإيمان بدأت تهتز... والنُّسْغُ يصعد ويتحرك في أغصانها وعروقها... والأوراق الصفراء بدأت تخضرّ... إذن، فالجذور كانت حية... لقد عاد الغريب إلى دياره بعد طول الغربة واللوعة والفراق... والشمس التي غربت تحت ظلال وألوان حمراء دامية وباكية بدأت تشرق من جديد... وترتفع أمام الأنظار في الأفق رويداً رويداً... تهب النور والفرحة والأمل من جديد...

في هذه الصحوة الإسلامية المباركة كم يحتاج المسلم أن يعرف نبيه ويتعلم منه ويجدد إيمانه ويلهب مشاعره، ويعرف بعض أسرار هذه البعثة المحمدية ومداها وشمولها وعمقها والطريق التي اختطّتها وحكمة يد القدرة فيها... لذا، فإن هذا الكتاب وأمثاله من الكتب التي لا تتناول السيرة كسرد أحداث وذكر

تواريخ، بل تتناولها من ناحية فقهها وحكمتها ومعانيها وأسرارها تبقى من أهم الكتب في تغذية هذه الصحوة وإنارة الطريق أمامها والتحذير من مفاوزها ومخاطرها. لذا، فهو كتاب كل مسلم وضع قدمه ليسير -على بركة الله- في هذه الطريق، ويتوجه إلى رسوله ومرشده وقائده وزعيمه ﷺ.

وبالنسبة لهذا الكتاب فهو مجموعة من سلسلة الخطب والمحاضرات التي خصصها المؤلف لشرح فقه السيرة، ودلائل النبوة، وشخصية الرسول ﷺ. وكانت الظروف آنذاك تستوجب هذه الفعالية لتذكير الناس برسولهم، وللوقوف أمام فتنة الهجوم على السنة التي ذرت بقرنها في تلك الفترة (أي في الفترة من ١٩٨٩-١٩٩٠). ونظراً لأهمية هذا الموضوع وحاجة المجتمع التركي الشديد لمثل هذا الكتاب قام طلابه بجمع هذه الخطب والمحاضرات، وعرضوها على المؤلف الذي قام بالتصحيح والتنقيح، ثم قاموا باستخراج المصادر والهوامش، وتمت الطبعة الأولى للكتاب سنة ١٩٩٢، والطبعة الثانية سنة ١٩٩٢... والطبعة السادسة سنة ١٩٩٧ وكان مجموع الطبعات يتجاوز خمسمائة ألف نسخة.

والحمد لله أولاً وآخراً.

اورخان محمد علي

اسطنبول – ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧م

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

إن تسليط الأضواء على شخصية الرسول محمد ﷺ السامية، وشرحها وبيانها، ثم تقديمها كمنقذ للبشرية، وكإكسير للمشاكل المستعصية على الحل، وللأمراض غير القابلة للشفاء، وإظهار هذه الشخصية السامقة وسيرتها بما هي أهل له كان رغبة ملحة لديّ -كما هي عند كثيرين- وهاجساً من هواجس فكري ومشاعري، وموضوعاً مهماً من المواضيع التي لا سبيل للوقوف أمام سحرها وجاذبيتها أو الفكاك منها.

إنه ﷺ فخر للبشرية جمعاء... فمنذ أربعة عشر قرناً يقف وراءه أكبر الفلاسفة وأعظم المفكرين وأشهر العباقرة وأذكى رجال العلم الذين زينوا سماء الفكر عندنا.. يقفون وراءه خاشعين قد عقدوا أيديهم أمامهم وهم يخاطبونه ويقولون: "أنت الإنسان الذي نفخر بانتسابنا إليه."

ويكفي للاستدلال على مدى عظمته بأنه على الرغم من كل عوامل الهدم والنخر التي أصابت عصرنا، فنحن لا نزال نسمع من فوق المآذن أصداء نداء "أشهد أن محمداً رسول الله"، ولا نزال نشاهد كيف أن الروح المحمدية

تفتح في كل مكان آفاق السمو نحو الأعالي، فيغمرنا الوجد والشوق خمس مرات كل يوم في عالم الروح. ونستطيع أن نشير إلى دليل عظمته فنقول بأنه على الرغم من كل هذا العمل المتواصل لأعداء الله في الداخل والخارج في الإفساد والإضلال، فإننا نرى حتى في هذه الأيام كيف أن العديد من الشباب في عمر الزهور –رغم عدم إحاطتهم التامة بالحقيقة الأحمدية التي ليس من اليسير معرفة مفاهيمها الدقيقة والصعبة– يتراكضون نحوه، ويحومون حوله مثلما تحوم الفراشات حول النور. وهذا أمر فريد لا نجد له مثيلاً في العالم؛ فالزمن لم يستطع أن يمحو من قلوبنا ومن صدورنا أي حقيقة من الحقائق العائدة له ﷺ، ولا أن يبليها... أجل، فهي حقائق غضة ندية ونضرة على الدوام. وكما قلت لإخواني مراراً إنني عندما أذهب إلى المدينة المنورة أجد رائحته العطرة محيطة بي إلى درجة تشعرني وكأنني سأقابله بعد خطوة واحدة، وكأن صوته الشجي الذي يحيي القلوب يقول لي: "أهلاً وسهلاً.. ومرحباً."

أجل، إنه حي ونضر في صدورنا إلى هذه الدرجة، فكلما تقادم الزمن ازداد نضارة وطراوة وحيوية في قلوبنا.

إن الزمن يتقادم ويشيخ، وإن بعض المبادئ والأفكار تتعفن وتتهاوى، أما منزلة الرسول محمد ﷺ فستبقى متفتحة في الصدور كأكمام الورود العبقة أبد الدهر، وستبقى نضرة في القلوب على الدوام.

وأنا أرى لو أننا اهتممنا واعتنينا بتقديمه والاهتمام به مثلما فعل الآخرون في تقديم شخصياتهم، ولو أن المؤسسات العلمية والمؤسسات الأخرى المتعلقة بشؤون الحياة نذرت نفسها للاهتمام به وشرحه وتوضيحه وبيان جوانب

شخصيته، لما تَربّع على عرش القلوب غيره، ولما تخلل في الضلوع والصدور سـواه.

ولكن مع كل هذا، وعلى الرغم من كل شيء يهرع الكل من شرق الدنيا وغربها حاملين معهم دلاءهم، مسرعين نحو نبعه الصافي الفياض.. نحو المنهل العذب المورود، يحدوهم الوجد والهيام ليبلغوا قبته.. قبة الإنسان الذي يضع التيجان على هامات الشموس.

أجل، إننا نشاهد في جميع أنحاء العالم -ولاسيما في أمريكا وإنكلترة وفرنسا وألمانيا- انبعاثاً جديداً لمنهجه ﷺ، وحركة دائبة من قبل المسلمين لشرح وبيان مبادئه، ونسج نسيجه المزخرف ذي النقوش البديعة والألوان الجميلة المتناسقة، فكأنهم يعيشون روح عهد النبوة من جديد. ونرى الأمر نفسه في العالم الإسلامي.. فقبل قرن أو قرنين كان هناك أناس يشعرون بارتباطهم مع المسلمين عن طيب قلب دون تدقيق أو تمحيص، أما الآن فهناك مثقفون يعرفون لماذا يؤمنون بالإسلام، ولماذا يقتدون بالرسول محمد ﷺ؛ لأنهم بدأوا بتحليل المسائل الإسلامية تحليلاً علمياً دقيقاً. فحتى الآن استغل أعداؤه الجامعات والكليات والمدارس والطبقة المثقفة، وخدعوها بشعارات براقة، واستخدموا المؤسسات الوطنية لحساب الكفر والضلال، ولكن كل هذه الأمور آذنت بالانتهاء، وبدأت تتفتت وتذوب وتضمحل مثل جبال الثلج الطافية على المياه، وبدأت الإنسانية تتجه نحو رسول الله ﷺ وتقبل عليه.

أما الذين غيّروا مذاهبهم وأفكارهم مرات ومرات منذ سنوات عديدة، وانتقلوا من هذا المبدأ إلى ذاك، ومن هذه الأيدلوجية إلى تلك، فقد رأى

هؤلاء كيف باءت محاولاتهم هذه بالفشل والخذلان، ورأوا أن المدرسة الوحيدة التي لم يقربها الخذلان هي مدرسته ﷺ، وأن سبيله وطريقه هو الصراط المستقيم، فاتجهوا إليه وأقبلوا عليه.. هكذا فعل "موريس بوكاي (Maurice Bucaille)"، وهكذا تصرف "روجه غارودي (Roger Garaudy)"، وغيرهم وغيرهم.[1]

ولكن هل استطعنا أن نفهم الرسول ﷺ سلطان القلوب المتربع على عرش الأفئدة حق الفهم، وندركه حق الإدراك؟

ولكن ما بالي أشير إليكم، أو أعنيكم؟ ما بالي أنا؟ هل استطعت أن أشرح جوانب عظمته كما يجب، وأكشف معالم شخصيته كما ينبغي؟ أنا الذي أضع جبهتي للصلاة منذ الخامسة من عمري، وأنا الذي أدّعي أنني وضعت الطوق حول عنقي لكي أكون "قطميرا"[2] له. هل استطعت أن أشعركم بما يجيش في صدري من عظمة النبي ﷺ كما يليق بجوانب هذه العظمة؟ إنني أسائل نفسي وأسائل جميع الذين يتصدون للتبليغ والدعوة: هل استطعنا أن نشرح لإنسان هذا القرن حبه.. حب سيد السادات حبّاً تجيش به القلوب؟ هل استطعنا أن نبهر القلوب والأرواح بهذه العظمة، عظمته ﷺ ؟

كلا! فلو عرفته البشرية حق المعرفة، وفهمته حق الفهم لهامت به حبّاً ووجداً.. ولو تغشت الأرواحَ ذكراه الجميلة، لثارت أشواقها وفاضت عيونها

---

(١) وغير هؤلاء كثيرون ممن آمن بكل قلوبهم بالإسلام، أمثال "ليوبولد فايس (محمد أسد)" و"كولن تورنر" وغيرهم. (المترجم)

(٢) قطمير: هو اسم كلب أهل الكهف. (المترجم)

بالدموع، ولاقشعرّ جلدها وهي تخطو إلى عالمه.. عالم النبوة الطاهر، ولألقت بنفسها للريح كي تشعل جذوة قلوبها المتقدة بحبه بعـــدما صــارت رمــاداً، فتذروها الريح نحوه ﷺ.

ولأن الإنسان يحب بمقياس إدراكه وفهمه، ولأنه عدو ما يجهل.. فإننا نرى أن البؤرة التي تتجمع حولها محاولات أعدائنا على الدوام ومؤامراتهم، هي بذل الجهود لإقصائه ﷺ عن القلوب، وإهمال ذكره، وتنشئة الأجيال الجديدة على عداوته وبغضه، وتوجيه هذه الأجيال وتربيتها وتعليمها في هذا الاتجاه.

ولكن انظروا إلى هذا التجلي الإلهي.. فجميع العقبات والسدود والموانع التي وضعها خصومنا لكي يمنعوا حبه ﷺ من القلوب، ويزيلوا ذكره من العقول، قد انهارت جميعها وتهدمت وأزيلت وتجاوزتها الإنسانية، وبدأ الشباب يهـــرع إليــه بكل فرح وحبور، كفرح ظمآن في صحراء موحشة وجد بالقرب منــه مــاء سلسبيلاً بارداً بعد أن قاسى آلام العطش والظمأ أياماً عديدة. ولا شك أن قلبـــاً رحيماً مثل قلبه ﷺ لا يَردّ أبداً من يقبل عليه بكل هذا الشوق وبكل هذا الوجد والعشق، بل يحتضنه بكل حنان وشفقة، ويضمه إلى صدره.

لا أدري إن كنتم انتبهتم إلى الناس الذين يملؤون المساجد على سعتها أيام الجمع؟ فلو دققتم النظر لرأيتم أن معظمهم من الشباب.

فيا ترى ما الذي يدفع هؤلاء الشباب في برد الشتاء القـــارس، وفي المطـــر والثلج إلى الجوامع وإلى الوضوء وأسنانهم تصطكّ من البرد؟ من يدفع هـــؤلاء على الرغم من محاولة أرباب الضلالة والطغيان جذبهم نحوهم بقوة لا تقـــاوم؟ سأجيبكم أنا: إنها قوة الجاذبية القدسية للرسول محمد ﷺ.

وسواء استطاعت عقولنا أن تفهم وتستوعب هذه الحقيقة، أو عجزت عن ذلك، فإن القلوب دائما ترف حول هذه الشمعة وتطوف حول هذه الشمس. وفي المستقبل القريب سوف يتجرع مرارة الألم ولوعة الندم من فاتته المسارعة إلى رحابه، والتوجه إلى جنابه ﷺ. ومن لم يقف في صفه، وبقي متشرداً، بائساً، وحيداً، منفرداً مثل ذبابة الشتاء... سيتأوه من الألم، وسيعض أنامله حسرة وندما قائلا: "لِم لم أتوجه إليه وأحُمْ حوله كالفَراش؟" وحينذاك قد يكون الوقت متأخراً ومنتهياً بالنسبة للكثيرين منهم.

سيهرع العالم والدنيا إليه، وستدقق المحافل العلمية في سيرته، وستسير وراءه كل نفس متفتحة على عالم الفكر، وسيتحول العديد من أعدائه إلى أخلص محبّيه وأتباعه، ويهرع إليه ليلوذ به. بل إن منزلة الرسول الكريم بدأت ترجح في كفة ميزان الطرف الخصم حتى بمقاييسه وبموازينه، وبدأت الأوساط المعادية له تقر وتعترف بعظمته. وقد ورد في الحديث بأن الرسول ﷺ وزن بعشرة من أمته فرجَحهم، ثم وزن بمائة فوَزَنهم، ثم وزن بألف من أمته فوزنهم، فقال المَلَك لصاحبه: "دعه عنك فلو وزنتَه بأمته لوزنها."[1] وجاء هذا المعنى في حديث آخر كذلك.[2]

أجل، فلو وُضع الصحابة والتابعون وتابعو التابعين وأكبر الناس وأعلمهم حتى يوم القيامة، وجميع المتصوفة والزهاد الذين فتحوا القلوب ونفذوا إليها، وكل الأولياء والأصفياء، وكل الأبرار والمقربين في كفة، ووضع محبوب قلوبنا

---

(١) الدارمي، المقدمة، ٣؛ «المسند» للإمام أحمد ١٨٤/٤؛ «الشفاء» للقاضي عياض ١٧٣/١

(٢) «المسند» للإمام أحمد ٧٦/٢

وسلطانها، وضياء عيوننا ونورها في كفة لرجحهم جميعا، ذلك لأنه هو سبب الوجود وحكمته.

فهو علة الكون والكائنات. وهناك قول مشهور يتردد على ألسنة الكثير من الناس: «لولاك لولاك ما خلقتُ الأفلاك.»[1] أجل، فمن العبث كتابة كتاب لا يمكن فهم معناه، والله ﷻ منـزه عن العبث، لذا فهنـاك حاجـة إلى مرشـد جهوري الصوت مثل سيدنا محمد ﷺ سيد الزمان والمكان لكي يـشرح معـنى الوجود، ومعنى الكون والكائنات. كذلك هناك حاجة إلى شارح وإلى مبلغ مثله لكي يشرح لهذا الإنسان الذي سخرت له هـذه الـسماء الواسـعة والأرض والشمس والقمر والنجوم وكل الوجود.. يشرح له من أين أتى وإلى أين هـو كادح وإلى أي شيء هو مرشَّح ؟ أجل، لكي يعلن ويوضح هذا، ويوصل مـا وراء أستار الوجود إلى الأرواح. فلو لم يكن موجوداً لما كان للكون ولا للإنسان أي معنى، لأن الرسول محمدا ﷺ هو الإنسان الذي أسبغ المعاني على الأشياء.

هو أقرب وأحب إلينا من كل المحبوبين. ومع أنني أعدّ نفسي أكثر المؤمنين قصوراً وذنباً، إلا أنني لا أملك نفسي من شرح إحدى مشاعري.. وغايتي من هذا الشرح هو لكي أبين: إذا كنت أستطيع أن أحب رسول الله كـل هـذا الحب، فما بالك بالقلوب والأرواح الواصلة إلى مراتب عُليا في حبـها لهـذا الرسول الحبيب، وكيف تشتعل هذه القلوب بعشقه ووجده ؟ لذا، أودّ أن يتم تقييم شرح مشاعري من هذه الزاوية، وإلا فإن أدبي كان يمنعني مـن طـرح مشاعري في حضوركم:

---

(١) «كشف الخفاء» للعجلوني ٢/١٦٤

عندما مَنّ عليَّ الله ﷻ بزيارة الأراضي المقدسة لكي أعفر وجهي بترابها بدت لي بلدة رسول الله مضيئة ونورانية، إلى درجة أنني ذقت معها سعادة روحية غامرة، وفرحا لا يوصف، بحيث أنني شعرت بأنه -على فرض المستحيل- لو فتحت لي حينذاك أبواب الجنة كلها، ودعيت للدخول إليها.. أجل، لو تم هذا، فصدقوني بأنني كنت سأرفض دخول أي باب من أبواب الجنة، بل كنت أختار وأفضّل البقاء هناك.

والحقيقة أن الجنة أملنا جميعا، ومن الصعب تصور أن هناك مسلماً واحداً لا يرغب في الدخول إليها.. ألا نبتهل لله ﷻ كل صباح وكل مساء في أدعيتنا أن يجيرنا من النار وأن يدخلنا جنته؟ ومع اعترافي بهذا وقبولي له، فإنه لو عرضت عليّ تلك المرتبة العليا، ودُعيت لها، لربما استأذنت ربنا أن يسمح لي بالبقاء في الروضة الطاهرة لرسول الله ﷺ. ولا يذهبن الظن بأحدهم بأنني أرى نفسي لائقاً لتلك المرتبة العليا، بل إنني أردت فقط إظهار مدى حبي لرسول الله ﷺ، وإلا فإنني قضيت حياتي أدعو الله أن ينيلني شرف الخدمة لأصغر صحابي من صحابة رسول الله ﷺ، وكان ابتهالي من الله تعالى أن لا يُبعد فكرنا لحظة واحدة من أمنية تعفير وجوهنا بتراب أرجلهم، وكان الكثير من الأوراد التي يكررها لساني على الدوام تحمل هذه المعاني.

وجاشت المشاعر نفسها عندي في بيت الله، وقد تكون هذه المشاعر مشاعر مشتركة لدينا جميعاً. ثم إن من يحمل هذه المشاعر غير محصور فيّ وفي أفراد قلائل، فكم وكم من ذائب في عشق رسول الله ﷺ تُعدّ هذه المشاعر بالنسبة له مشاعر بدائية وخشنة.

وما دمنا وصلنا إلى هذا الموضوع من الحديث فإنني أود أن أسوق ذكرى أخرى من ذكرياتي:

كنا في الحج معاً مع السيد "عارف حكمت"، وكان آنذاك نائباً في المجلس الوطني، وكان قد قطع عهداً على نفسه أن يتمرغ في تراب المدينة المنورة حالما يصل إليها.. وما أن وصل إليها حتى ألقى هذا الرجل الفاضل نفسه على التراب، وبدأ يتقلب ويتمرغ في ترابها. فكلما تذكرت هذه الحادثة امتلأت عيوني بالدموع.

إن رسول الله نبي، ولكنه نبي بَشّر به جميع الأنبياء السابقين. فقد أخذ الله ميثاق النبيين جميعاً لَيؤمنُنّ به ولينصرنه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران: ٨١).

وقد التزم جميع الأنبياء بهذا العهد الذي قطعوه لله ﷻ وعاشوا لتحقيق هذا العهد، وكان نشاطهم منصباً في هذا الاتجاه. وعندما عرج برسول الله ﷺ إلى السماء صلّت أرواح هؤلاء الأنبياء وراءه.[1] أجل، فكأن جميع الأنبياء وفي مقدمتهم النبي إبراهيم عليه السلام ونوح عليه السلام وموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام كانوا يريدون أن يكونوا مؤذّنين عنده. يقول عيسى عليه السلام في الإنجيل: [إنني ذاهب لكي يأتي سيد الزمان.] (يوحنا – الباب: ١٦، الآية: ٨)، أي كان يلفت أنظار الإنسانية إلى هذا النبي العظيم.

---

(١) انظر: «جامع البيان» للطبري ١٥/٥؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٣/١٣٩

أجل، فعندما عرج إلى السماء امتلأت حجور السموات باللآئي والجواهر، وفُرشت النجوم تحت قدميه كأحجار الرصيف.. وعندما وصل إلى أفق الشمس تمنّت الشمس أن تكون جوهرة على تاجه.. كل هذه الموجودات كانت تطوف وتدور حول نبوته.

ثم إنه كان يمثل الصفات الإنسانية في ذروتها ليكون قدوة وأسوة حسنة لنا. فمثلاً كان رئيس عائلة مثالي، وفي ذلك البيت حيث كان إكسير النبوة يتقطر فيه قطرة قطرة، لو توزّع كل ولد من أولاده الناشئين فيه على العصور، لنشأ منهم مجتهدون ومجددون ينير كل منهم عصره. ولا أدري كم من الناس نجح في معرفته من هذه الزاوية.

كان في الوقت نفسه قائداً عسكرياً لا يشق له غبار. فبواسطة نفر من أصحابه الذين تحلّقوا حوله كما تتحلق الهالة حول القمر أهوى عروشاً لسلاطين جبابرة كانوا قد أعلنوا الحرب على العالم بأسره، ودخل ملوك عظام في إسار حبه.. إسار لا يريد الفكاك عنه، مع أنه إن أخذنا بظاهر الحال فإنه لم يدرس علم الحرب وفنونها، و لم يتعلمها من أحد.

ثم إنه الشخص الذي تنتهي عنده العلوم. فكأنه جالس أمام شاشة يشاهد جميع الحوادث حتى يوم القيامة، ثم يخبر عنها.[1] ومع أن عصوراً عديدة مرت منذ ارتحاله إلى دار البقاء، ففي المحطة الأخيرة التي وصلت إليها البحوث والتقنية المعاصرة بكل إمكانياتها الهائلة، نرى الراية التي ثبتها رسول الله ﷺ قبل أربعة

---

(١) انظر: البخاري، القدر، ٤؛ مسلم، الفتن، ٢٢-٢٥؛ أبو داود، الفتن، ١؛ «المسند» للإمام أحمد ٤/١؛ ٣٨٦/٥

عشر قرناً ترفرف في السماء، ونرى الذين هداهم الله ﷺ ينطقون بالشهادتين، ويكوّنون حلقة من الحلقات المضيئة لقافلة الإسلام. إليكم مثالاً واحداً من أمثلة لا تعد ولا تحصى:

ففي شريط فيديو شاهدتُ البروفسور الكندي "كيث مور (Keith Moore)" أستاذ التشريح في كلية الطب في جامعة تورونتو (Toronto) والمتخصص في علم الأجنة وهو ينبهر بما ورد في القرآن الكريم حول مراحل نموّ الجنين في بطن أمـــه، هذه المراحل التي لم يكن في الإمكان اكتشافها إلا بعد التطور التكنولوجي الحالي.

كما شاهدتُ عالـــماً فيزيولوجياً يابانياً وهو يـــتلفظ بكلمـــة الـــشهادة بصعوبة، ودخل بكل اطمئنان ورضا إلى صفوف المسلمين بعدما رأى وسمـــع الآيات القرآنية المتعلقة بساحة اختصاصه.

أجل، فكما هو ظاهر فالقرآن الكريم يفتح المنافذ أمام العلم كلما انـــسدّت السبل أمامه، وإن نقطة النهاية للعلم هي نقطة البداية عند رسول الله ﷺ، ولكن من علّمه كل هذا؟ لقد أخذ درسه من الله "العليم" "الخبير". فوراء هذه المعارف هناك المعلم الأزلي، ومن ثم فإن المعارف التي استقاها لم تتعرض للقِدم والبِلى، بل اكتسبت شباباً وحيوية ونضارة كلما تعاقبت عليها العصور، وســـتتجدد علـــى الدوام ما دامت السموات والأرض.

ثم إنه ﷺ كان محبوباً من أصحابه وأصدقائه حبّاً لم يكن من نصيب أحـــد. فمثلاً عندما أحضر الكفار الصحابي خُبيب بن عدي ﷺ بعدما أسروه عقـــب غزوة "ماء الرجيع" سألوه قبل إعدامه: "أتشتهي أن يكون محمد مكانك وتكون أنت آمناً في بيتك؟" فأجابهم: "لا والله، لا أحب أن يشاك شوكة في قدمه وأنـــا

في موضعي هذا." وبعد هذه الإجابة الشجاعة رفع يديه ودعا قائلاً: "اللّهم إنا قد بلّغنا رسالة رسولك فبلّغه الغداة ما يُصنع بنا" ثم دعا على الكفار: "اللّهم أحصهم عدداً، واقتلهم بَدَداً ولا تغادر منهم أحداً." ثم قتلوه رحمه الله.[1]

وقد تلقى الرسول ﷺ هذا السلام، وأبلغ أصحابه باستشهاد خُبيب وهو في غاية التأثر، إذ يروي موسى بن عُقْبة أن خُبيباً وزيد بن الدَّثِنَة ﷺ قُتلا في يوم واحد، وأن رسول الله ﷺ سُمع يوم قُتلا وهو يقول: «وعليكما -أو عليك- السلام، خُبيب قتلته قريش.»[2]

وهاكمْ مشهداً آخر يشرح قلب كل مؤمن رغم مرور الدهور وتعاقب العصور:

عندما سمعتْ الصحابية سُميراء في معركة أُحد أن رسول الله قد استشهد، أسرعت إلى سفح جبل أُحد، وهناك أروْها جثث أبيها وزوجها وأولادها، ولكنها لم تلق بالاً لذلك، بل كانت تبحث عن رسول الله، وتسأل على الدوام: "ما فعل رسول الله؟" وعندما أشاروا لها أخيراً إلى مكان رسول الله هرعت إليه، وألقت بنفسها على الأرض أمامه قائلة: "كل مصيبة بعدك جَلَل![3]"[4] إذن، فهكذا تَربّع حب رسول الله في القلوب والصدور.

وإليكم مثالاً آخر يظهر مدى حب الصحابة للنبي ﷺ:

كان رسول الله وفخر العالمين قد أبلغ بقرب رحيله إلى الرفيق الأعلى،

---

(١) البخاري، المغازي، ١٠؛ «المسند» للإمام أحمد ٢/٢٩٤؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/١٨٢

(٢) «البداية والنهاية» لابن كثير ٤/٧٦؛ «حياة الصحابة» للكاندهلوي ١/٥٢٤-٥٢٥

(٣) معنى جلل هنا: هين أو صغير. (المترجم)

(٤) «مجمع الزوائد» للهيثمي ٦/١١٥؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٤/٥٤

فكأنه استلم دعوة من وراء السموات بذلك.. إذن، فقد حان وقت فراقه عن أحبائه وأصحابه الذين جاهدوا معه طوال ثلاث وعشرين سنة، لذا كان يخرج للقاء أصحابه حزيناً في أيامه الأخيرة. وكان الصحابة يتأثرون من حاله هـذه ويحزنون، وصدورهم تمور بالحزن والأسى كلما رأوا رسول الله ﷺ يدخل بيته. وكان رسول الله ﷺ قد أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن ليبلّغ رسائل النبي ﷺ وأوامره وتعليماته، وعندما يرجع من اليمن يعرض على رسول الله ما رآه من أمور وأحداث وما قابله من مشاكل. وقبل سفره الأخير ذهب إلى رسول الله ليدعو له قبل التوجه إلى اليمن، ولكنه سمع رسول الله ﷺ وهو يقول لـه: «يا معاذ! إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي وقبري.»[1] فكأن صاعقة نـزلت على رأس معاذ.. شعر كأنه طير قد قُصَّ جناحاه.. وانهمرت الدموع من عينيه.

وكان ﷺ يحل أعقد المشاكل الاجتماعية بكل بساطة وسهولة، وبعده بثلاثة عشر قرناً أشار "جورج برنارد شو (George Bernard Shaw)" إلى هذه الحقيقة قائلاً: "ما أحوج عصرنا إلى شخص مثل محمد ﷺ، يحل له مشاكله ريثما يشرب فنجاناً من القهوة." وهذا هو المهم، فالفضل ما شهدت به الأعداء.

أجل، إن البشرية حينما تتوجه إليه تشعر بالأمن والطمأنينة، وتصل إلى الآفاق النيِّرة المضيئة، وتتخلص من السفالة والسفاهة، ولا تكون أُلعوبة بيد الأيام، بل تتخلص من الخسران في الدنيا وفي الآخرة، وترتفع وتسمو إلى المرتبة اللائقة بالإنسانية. والحقيقة أنه بالرغم من كل القوى المعادية، ومن كل الموانع

---

(١) «المسند» للإمام أحمد ٢٣٥/٥

والعقبات، فإن جميع المؤشرات والأمارات تومئ إلى بداية البعث والنهوض من جديد مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۞ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (الصفّ: ٨-٩).

أجل، إن الله سيظهر دينه، ويتم نوره، وستهرع إليه القلوب والنفوس الظامئة لكي تجد الأمن والطمأنينة في رحابه، فتعيش سعادة أهل الجنة في الدنيا؛ وسيأتي اليوم الذي تنفتح جميع القلوب وجميع الضمائر وجميع النفوس لمحبة خاتم الأنبياء وسلطان الأولياء الذي نعلن اسمه خمس مرات على الملأ كل يوم.

وكان أيضاً مبعثاً للطمأنينة، فنحن نؤمن إيماناً راسخاً لا شك فيه بأن الرسالة التي جاء بها منبع للأمن والطمأنينة.. والتاريخ هو أكبر شاهد على ما نقول. ولكي تذوق الإنسانية هذه الطمأنينة مرة أخرى، فليس هناك إلا حل واحد أمامها، وهو أن تهتدي بالنور الذي أتى به الرسول ﷺ، إذ كلما ازداد الإنسان معرفة به ازداد حباً له.. وبهذه المحبة سيتغير وجه المجتمع.[1]

في هذه "المقدمة" التي كان القدماء يعبرون عنها بـ"الديباجة" حاولت مستنداً إلى عون الله تعالى وكرمه وإحسانه أن أشير باختصار، وعلى نمط الفهارس إلى جوانب عظمة فخر الكائنات، وسيد الدنيا والآخرة.

كل كلام في مدحه جميل، فإن وجدتم شيئا نابيا، فمني ومن أسلوبي، أما ما يتعلق بفخر الكائنات فكله مشرق وجميل.

---

(١) جاء في الحديث: «من خالطه معرفةً أحبه.» **الترمذي**، المناقب، ٨

تمهيد :

النبي المرسل

رحمة للعالمين

أ. الفجر المرتقب

دنيا يسودها ظلام دامس... ظلام يحمل في طيّاته نوراً مرتقباً... وأصداءً تحمل بشرى ظهور نبي جديد... وتتسرب أصداء هذه البشرى، وتطرق الأسماع والقلوب حتى بدأ الكثير من أهل مكة يتحدثون عن هذا النبي المرتقب ويوصي بعضهم بعضا: "عليكم أن تسرعوا إلى هذا النبي حالما يظهر.. أسرعوا إليه وآمنوا به!"[1]

كل القلوب واجفة... فالآمال جميعها معقودة عليه... على خاتم المنقذين... والأمهات والآباء يطمعون أن يكون هذا النبي من نسلهم، لذا يسمي العديد منهم أبناءهم "محمدا."[2] ولكن النبي المرتقب يجب أن يكون من سلسلة نسب ذهبية، تبدأ من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وتنتهي بعبد المطلب فعبد الله.. كانت القلوب ترتقب هذا النور من هذا الطريق. وكانت الأحداث تشير إلى قرب قدومه، ودنو مجيئه.. فحلكة الظلام تؤذن بقدوم الفجر.

لم يكن إنسان ذلك العصر يحمل قيمةً تعطي للحياة معنى، أي تعطي للحياة غاية وهدفاً يستحق العيش من أجله، بل كانت أعمال الناس آنذاك مثلما قال القرآن الكريم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾ (النور: ٣٩).

---

(١) انظر إلى: «السيرة النبوية» لابن هشام ١/٢٠٣-٢٠٤

(٢) «الطبقات الكبرى» لابن سعد ١/١٦٩

ولم تكن المشاعر والأفكار والتصرفات تتباين عن هذا كثيراً: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ (النور: ٤٠).

كان اسم هذا العهد "عهد الجاهلية"، غير أن الجاهلية هنا لم تكن تأتي كنقيض للعلم، بل كمرادف للكفر الذي هو نقيض الإيمان والاعتقاد. ولا أريد هنا أن أعرض -ولو بشكل موجز- مَعالم هذا القبح في ذلك العهد، لأنني لا أريد أن أعرض أمامكم -ولو لوقت قصير- لوحة سوداء مقززة. كما أن تصوير الباطل قد يفسد الأذهان ويضلها، وأنا أرى أن هذا يشكل جريمة. بيد أنه يلزم لفهم ذلك العهد أن نشير إلى بعض عاداته وتقاليده ليتسنى لنا أن نعي فضل الله على العالمين، ورحمة الرحمن الرحيم، في إرسال فخر الكائنات وسيد المرسلين.

إن مجيئه ﷺ كان من أكبر نعم الله ﷻ للعالمين، وأفضل إحسانه، وهذا هو ما يشير إليه القرآن الكريم إذ يقول: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

إذن، فانظروا إلى مدى رحمة الله ولطفه وإحسانه عندما يرسل إلى الناس رسولاً من عند أنفسهم، يحس بما يحسون، ويفكر كما يفكرون، ويكون لهم مرشداً وهاديا في الطريق الموصل إلى الله تعالى.. فإن احتاجوا إلى إمام تقدمهم وأصبح لهم إماما، وإن احتاجوا إلى خطيب اعتلى المنبر فكان خطيباً مفوّهاً، وإن احتاجوا إلى أمير كان لهم أميراً يرسل الرسائل للملوك ويختم المعاهدات،

وإن احتاجوا إلى قائد تقدم صفوفهم في الحرب، وأصبح لهم قائداً أفضل من جميع القواد المتمرسين...

هناك عقيدة خاطئة لدى النصارى، فهم يعتقدون أن الله ﷻ قد ضحّى بعيسى عليه السلام ليفتدي به الخطيئة الأولى للإنسانية، أي يؤمنون بأن الله –سبحانه وتعالى عما يقولون– قد ضحّى بابنه المسيح لكي يصفح عن الإنسانية كلها، لذا فقد صلب المسيح على الصليب حسب هذه العقيدة الخاطئة، وهكذا تم الصفح عن الخطيئة الأولى التي بدأت مع آدم عليه السلام وانتقلت إلى كل إنسان، فكل إنسان يحمل هذه الخطيئة منذ مجيئه إلى الدنيا، ومنذ ولادته. وهذه عقيدة خاطئة من جهة، وضالة من جهة أخرى لكونها قابلة لتأويلات عديدة إلا أن لها تلميحاً صحيحاً، وهو أن الله تعالى أرسل أفضل خلقه محمداً ﷺ وأحبهم إليه رسولاً إلى الناس مع علمه بما سيتعرض له من أذى وآلام. وذلك لكي يخلصهم من الضلالة والانحراف والطغيان حتى لا يضيعوا في الطرق والمتاهات، بل يرتقوا إلى المستوى اللائق بالإنسان الكامل.. وحسب تعبير المحقق والمتصوف الشاعر "إبراهيم حقي"، فإن على المؤمنين أن يعرفوا ربهم ككنز في قلوبهم.

فالقلب مصدر للخزائن، بحيث أن الله تعالى الذي لم تسعه السموات والأرض يتجلّى في هذا القلب. لا الكتب ولا العقول ولا الأفكار ولا الفلسفات ولا البلاغة والفصاحة ولا السموات والأرض ولا الكائنات بأجمعها تستطيع الإحاطة بالله ﷻ، بل تعجز عن التعبير عنه، القلب فقط يستطيع أن يكون –ولو بمقياس صغير– ترجماناً له.

أجل، للقلب لسان لم تسمع الآذان بياناً مثل بيانه، وبلاغة مثل بلاغته.

إذن، فعلى الإنسان أن يقطع المسافات في قلبه، وأن يبحث فيه عما يبحث، فيصل إلى ربه هناك، ويفنى في حبه، علماً بأن الله ﷻ أرسل رسوله محمداً ﷺ إلينا من أجل هذا.

أجل، فقد أُرسل إلى الإنسانية لكي يتلو عليها آيات ربها، ويعرض أمام عينيها معجزاته، ولكي يعلّم الإنسانية ماهيتها الحقيقية. وبفضله تستطيع البشرية أن تتطهر من أرجاس الطبيعة، فتصبح نقية صافية، وتسمو من المرتبة الدنيا للجسم إلى المرتبة العليا لحياة القلب والروح، وقد سمت فعلا.

أجل، إنه سيعلّم الناس الكتاب والحكمة، وفي نور الكتاب وضوء الحكمة ستجد الإنسانية نفسها، وتنتبه إلى الآخرة وتلتفت إليها، فتسلك الطريق إلى الحياة الأبدية، وقد سلكت هذا الطريق فعلا.

هناك أيام مباركة وأيام مهمة وكريمة عندنا، وبعضها يعدّ عيداً للمؤمنين، ففي كل أسبوع يعيش المؤمنون فرحة يوم الجمعة. ونعيش هذه الفرحة بمقياس أكبر في عيد الفطر وفي عيد الأضحى. ففي أيام عيد الأضحى يتذكر المسلمون التضحية التي قدّمها النبي إبراهيم عليه السلام، ويبتهلون فيها، ويدعون الله من قلوبهم وبكل إخلاص أن يغفر لهم ذنوبهم، ومن أجل ذلك يهرع بعضهم إلى بيت الله ليتمسحوا بأستاره، وعندما يقفون في عرفات يتوجهون بقلوبهم إلى الله، ويبتهلون إليه بروح محمدية ليغفر لهم.

وأما عيد الفطر فهو عيد مبارك غنيّ بمعانيه، إذ هو تعبير عن الفرحة التي يشعر بها المسلم وهو يعيش فرحة الاقتراب من الرضا الإلهي بعد شهر كامل من الصوم. ولكن هناك عيد آخر يعد عيداً للإنسانية، بل لعالم الوجود كله؛

وهو يوم تشريف الدنيا بمجيء رسول الله ﷺ، أي يوم الميلاد الأحمدي.[1] أي هو اليوم الذي علّق الله ﷻ النور الأحمدي، والسراج المحمدي في سماء الإنسانية مثل شمس مضيئة. أجل، فبهذا النور تبدد ظلام الجاهلية، وغمر النـــور العـــالم بأسره، فكان هذا أفضل وأكبر وأعظم نعمة لله ﷻ على الإنس والجن.

---

(١) اليوم هو يوم الأربعاء الموافق لـــ ١٣ تشرين الأول لسنة ١٩٨٩. من التوافقات -ولا نقـــول الصدف- الجميلة أن تصحيح هذه الأسطر وافق يوم الميلاد الأحمدي.

ب. عهد مظلم

كل عهد اهتزت فيه عقيدة التوحيد يعد عهداً مظلماً، ذلك لأن الإيمان بالله ﷻ الذي هو نور السموات والأرض، إن لم يحكم جميع القلوب، سيطر الظلام على الأرواح، واسودّت القلوب؛ فمثل هذه القلوب المظلمة تبتلى بقصر النظر عند مراقبة الأحداث، وتكون رؤيتها متعكرة وغير صافية، ويعيش صاحب مثل هذا القلب كالخفافيش في دنيا الظلام.

ففي هذا العهد الذي اهتزت فيه جميع أسس الدين من قواعدها، وحرفت فيه الديانات السماوية من قبل أتباعها، لم يبق هناك سوى فئة قليلة من الموحّدين الذين كانوا يؤمنون بالله ﷻ، ولكن دون أن يدركوا صفاته وأسماءه الحسنى، لذا فما كانوا يعرفون كيف يوفون وظيفة العبودية لله حقها.

١ ـ بصيرة عمياء

كان المشركون يعبدون الأوثان والأصنام التي ملأوا بها الكعبة، ويفخرون بهذه العبادة، ويجدون فيها السلوى. والذين كانوا يملكون نصيباً قليلاً من العلم كانوا يقولون بأنهم لا يعبدون هذه الأصنام إلا لتقربهم إلى الله. والقرآن الكريم يشير إلى هذا فيقول عن لسانهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلى اللهِ زُلْفَى﴾ (الزمر: ٣).

وهكذا، فإن شعور العبودية الذي أودع في فطرة الإنسان كأمانة مهمة تعرّض للخيانة وسوء الاستغلال.. فكيف يمكن أن يعبد الحجر والشجر والتراب أو الشمس والقمر والنجوم؟ بل كانوا يعبدون حتى بعض أصناف

الأطعمة التي يعملونها بأيديهم كالحلوى والجبن، وبعد عبادتها لفترة من الوقت يقومون بأكلها إذا جاعوا.

ويشير القرآن الكريم إلى مثل هذا التفكير الفاسد والفهم البالي فيقول: ﴿وَيَعْبُدُونَ من دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عندَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (يونس: ١٨). و﴿أَلاَ للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا من دُونه أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إلى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (الزمر: ٣).

ثم ها هم يبحثون عن عذر لهذا التفكير المنحرف، وأكبر عذر يجدونه هو القول بأنهم وجدوا آباءهم لها عابدين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٠).

٢ـ براعم تُوأد

والقرآن الكريم يشير إلى شر آخر من شرور الجاهلية: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (النحل: ٥٨-٥٩).

أجل، فما إن يبشَّر أحدهم بميلاد طفلة له حتى يربدّ وجهه غضبا، ويعروه السواد خجلا من وقع هذا الخبر الأليم، فلا يستطيع أن يغشى الناس. فالخبر عنده بلغ من السوء حداً حدا به إلى الرغبة في التواري من القوم، ويوقن بأن

عليه أن يختار أمراً من أمرين، ولكنه متردد لا يدري أيهما يختار: أيختار الإبقاء على حياة الطفلة، وتجرّع آلام الهوان من المجتمع، أم يقوم بغسل العار (!) بقتل تلك الطفلة ووأدها؟

تلك كانت المنـزلة المهانة للمرأة في الجاهلية. و لم تكن مهانة المرأة هـذه، وتحقيرها والحط من شأنها قاصرة على عرب الجاهلية وحدهم، فالوضع نفسه كان موجوداً في الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية. لذا، يمكن القول بأن ما قام به الإسلام فيما يتعلق بعالم المرأة بين عرب الجاهلية، يعدّ عملا لا مثيل له في قضية المرأة على نطاق العالم بأسره.

أجل، فقد كان القرآن أول من يقف في وجه مثل هذه الوحشية، فيحـرّم قتل الأطفال تحت أي ذريعة من الذرائع: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِنْ إمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (الأنعام: ١٥١). فكأن الله تعالى يقول لهـم: لِـمَ تقتلـون أولادكم؟ إنني أنا الذي أرزقكم وإياهم.. ألا ترون أن وجـه الأرض حافـل بمئات من موائد الأطعمة المزجاة لكم؟ ألا ترون أن السماء تهرع لنجـدتكم، والغيوم فيها مساقة لإنـزال الماء والثلج عليكم؟ وهذه الملايين مـن أنـواع النباتات على وجه البسيطة، من أنبتها غيري؟ وعلى الرغم من رؤيتكم لكـل هذا، فأيّ عقل وأيّ ضمير وأيّ وجدان يسوقكم للخـوف علـى رزقكـم، فتقدمون على قتل أولادكم؟ إياكم أن تنسوا أن من يقترف مثل هذا الجرم لن يكون أهلاً لخطاب الله تعالى له أبدا، بل سيخاطب الله تعالى هؤلاء الأبريـاء، ويسألهم عن الجرم الذي اقترفوه وكان سبباً لقتلهم؛ سينال الظالمون جـزاءهم العادل لاقترافهم هذا الظلم الشنيع، والآية الكريمة: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُـئِلَتْ ۝

بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (التكوير: ٨-٩) تبين لنا بأسلوب يقشعر منه البدن طبيعة أخلاق ذلك العهد.

حضر مرة أحد الصحابة مجلس رسول الله ﷺ، وذكر له هذه الوحشية الجاهلية، وقال:

يا رسول الله! إنا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان، فكنا نقتل الأولاد، وكانت عندي ابنة لي، فلمّا أجابت، وكانت مسرورة بدعائي إذا دعوتها، فدعوتها يوماً فاتّبعتني، فمررت حتى أتيت بئراً من أهلي غير بعيد، فأخذت بيدها، فرديت بها في البئر، وكان آخر عهدي بها أن تقول: "يا أبتاه! يا أبتاه!" فبكى رسول الله ﷺ حتى وكف[1] دمع عينيه، فقال له رجل من جلساء رسول الله ﷺ: "أحزنتَ رسول الله ﷺ!" فقال له: «كُفَّ،[2] فإنه يسأل عمّا أهمّه.» ثم قال له: «أعِدْ عليّ حديثَك» فأعاده، فبكى حتى وكف الدمع من عينيه على لحيته ثم قال له: «إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا، فاستأنفْ عملَك.»[3] فكأنَّ رسول الله ﷺ كان يقصد من تكرار هذه الحادثة إفهامهم: "هكذا كنتم قبل الإسلام.. وما قمت باستعادة الحادثة إلا لأذكركم بالقيم الإنسانية التي منحها لكم الإسلام."

من هذا المثال الأليم المفجع، تدرك مدى الأزمة التي كان يعيش فيها إنسان ذلك العصر.. فإلى جانب آلاف الفظائع الأخرى، كانت تُحفَر هناك حفر

---

(١) وكف: تقاطر (المترجم)

(٢) كُفَّ: أي أمسك عن تأنيبه ولومه. (المترجم)

(٣) الدارمي، المقدمة، ١

عميقة في ظلام كل يوم في تلك الصحراء، ويرمى فيها أطفال أبريـاء ليلقـوا هناك حتفهم. أجل، لقد سبقت البشرية الضباع في الوحشية بمسافات كثيرة.. فالذي لا يملك المخلب والناب، كان مصيره الافتراس والقتل مـن قبـل ذي المخلب والأنياب، وكان المجتمع يتقلب بين آلام أزمات حادة، ولم يكن هناك من ينهي هذه الأزمات، أو يجد لها حلاً ودواء.

في هذه الأثناء، يعتكف نبينا في غار حراء -الذي سيكون اسمه بين أمته فيما بعد "جبل النور"- ويفارق مجتمع الناس؛ هناك يثبت ناظريه في الأفق، وينتظـر فجر الخلاص.. والظاهر أنه كان يضع جبهته على الأرض، ويبتهل لربه سـاجداً لساعات طويلة، يسأله خلاص الإنسانية، وإرسال منقذ لها، ذلك لأن الـشيخين عندما يقصّان هذه الفترة يستعملان تعبير "فيتحنث فيها"، وهذا التعبير يعني أنـه قد اعتزل عن الناس وأسلم نفسه للعبادة.

أجل، كان رسول الله ﷺ يبقى أحياناً هناك، ولا يرجع إلى مكة إلا عندما تنفد مؤونته، ثم يرجع إلى الغار مرة أخرى حاملاً معه ما يكفيه من الزاد.[1] لا شك أنه كان في الغار يتأمل الوجود، وما وراء هذا الوجود.. يتأمـل الخلـق والكائنات، والغاية من هذا الخلق، والهدف منه.. ثم يتأمل مـا آلـت إليـه الإنسانية من حال مفجعة تقشعرّ منها الأبدان، وتتفطر لها القلوب.

٣- قيم متغيرة

أجل، لقد كان المجتمع منحدراً إلى هاوية مظلمة، إذ تغيرت فيه جميع القيم

---

(١) البخاري، بدء الوحي، ٣؛ مسلم، الإيمان، ٢٥٢

الإنسانية، وانقلبت رأساً على عقب، فأصبحت الفضيلة عيباً، والعيب والنقيصة فضيلةً وفخراً.. الوحشية تُمجّد، والرحمة والإنسانية تُمتهن.. قد وضعت الذئاب نفسها موضع الرعاة، أما الأغنام التي لم يعد لها حول ولا قوة، فتئن في أيدي هؤلاء الرعاة القساة وتتوجع، وما لها من سامع.. وشاع الفحش والزنا والانحلال الأخلاقي، ولم يكن شرب الخمر ولعب القمار عيباً، ولم يكن الاحتكار شيئاً غريباً، بل أمراً مألوفاً.. أما طرق النهب والسلب، وامتصاص دماء الناس، فكان يعدّ ذكاء ومهارة وحذقا.

ومن ثم، فقد كانت هناك حاجة لشخص ساحر البيان، مؤثر الكلام ليقول لكل هذا الفساد: "قف!" كانت الحاجة ملحة وشديدة إلى درجة اهتزت معها الرحمة الإلهية، واستجابت، فأرسلت فخر الكائنات رسولاً.. وبمجيئه تغير كل شيء وتبدل، وتحقق الانقلاب الأعظم. أجل، وصدق أمير الشعراء أحمد شوقي حين قال:

وُلِدَ الْهُدَى فَالْكَائِنَاتُ ضِياءُ وَفَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَثَنَاءُ

وبعد أن كان الزمان والمكان غارقين في الظلام، إذا بثغريهما يفترّان عن بسمة وفرحة بالنور الذي جاء به الرسول محمد ﷺ.. وبعد سنوات كان أهل المدينة ينشدون لمجيئه، ويهللون لقدومه، مرددين في استقباله:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع [1]

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ٢٤١/٣؛ «دلائل النبوة» للبيهقي ٥٠٧/٢

٤ ـ إعداد إلهي

لقد كانت كل مراحل طفولته وشبابه ونضوجه بمثابة مقدمات وسلالم لنبوته، إلى درجة أنه ما إن أعلن نبوته ورسالته حتى آمن به من عرفه عن قرب.

فهو الصادق الذي ما جُرّب عليه كذب قط، وها هو يتكلم عن الله تعالى، وأنه رسول من عنده، إذن، فكيف يمكن لإنسان لم ينطق بكذبة واحدة في أصغر شأن من الشؤون أن يكذب في مثل هذا الموضوع الخطير، وفي هذا الموضوع العلوي؟[1] كان هذا شيئاً مستحيلاً، وأمراً محالاً. هكذا كان يفكر إنسان ذلك العهد. ومع أن الجميع لم يؤمنوا به، إلا أن من نبذ العناد والحسد، أسرع إلى الإيمان به.

صحيح أن العهد الذي كان يعيش فيه كان عهد جاهلية، ولكن صفة الجاهلية كانت بعيدة عن حياته الخاصة وخارجة عنها؛ فما عاش النبي حياة جاهلية قط، فلقد كان شخصاً أميناً، يعرفه الجميع بهذه الصفة؛ فلنفرض مثلاً أنك عزمت على السفر، وأردت أن تودع زوجتك في مكان، فإنك تستطيع دون أي تردد أن تودعها عند محمد الأمين، وأنت مطمئن البال بأنه لن يرفع طرفه لينظر إليها.. وإن كنت ترغب في إيداع مالك عند أحد الناس، فإنك لا تتردد لحظة واحدة أن تذهب، وتسلمه إليه، وأنت على يقين تام بأن ذرة واحدة من مالك لن يصيبها أي ضرر، وأنه في غاية الحفظ وأتمه.. وإذا أردت العلم اليقين في أمر من الأمور، فما عليك إلا المسارعة إلى الصادق الأمين،

---

(١) انظر: البخاري، بدء الوحي، ٣، ٦؛ مسلم، الجهاد، ٧٤

لتستمع إليه، وتُقيم الموضوع على ضوء بيانه، وأنت مرتاح البال؛ لأنه لم ينطق بكذبة واحدة طوال حياته.

أتريد دليلاً على هذا؟ حسناً.. ها هو يصعد الصفا، ويسأل الناس حواليه: «أرأيتم إن أخبرتكم أنّ خيلاً تَخرج من سَفْح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ؟»، قالوا: "ما جرّبنا عليك كذبا." حتى عُتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة وأبو جهل وغيرهم من أعداء الدين، كانوا من ضمن هؤلاء المجيبين والمصدقين.[1] فالجميع يسلمون بصدقه واستقامته وأمانته.

فقدَ أباه في بطن أمه، وفقد أمه في سن السادسة من عمره، فكفله جده عبد المطلب، وما أن بلغ الثامنة من عمره حتى توفي جده كذلك.. كأن القدر كان يجرّده من كل شيء، ويهيئه لتسليم أمره كله لله ﷺ؛ فكل من مدّ يده إليه، أو أخذه في حمايته كان سرعان ما يرحل.. فكأن القدر كان يومئ بالحماية الإلهية الفعلية والمباشرة في ظل نور التوحيد، وتجلي سر الأحدية.. كان عليه أن يحس بكلمة التوحيد، وبجملة "حسبي الله" في أعماق وجدانه، وينطق بها.. كان من الضروري أن تفقد الأسباب الظاهرية قيمتها عنده.. ولقد حدث هذا فعلاً.

جاء إلى الدنيا من أب اسمه "عبد الله"، وأم اسمها "آمنة"؛ وليس هذا تصادفا، بل تقديراً إلهيّاً؛ فأمّ يحمل اسمها معنى الأمن والأمانة، وأب يحمل اسمه معنى العبودية لله تعالى، تهيئةربانية، وإعداد إلهي، لينشأ الأمين قبل الرسالة في جو من معاني العبودية.

نشأ يتيماً.. فلقد كان هناك في انتظاره عبء ثقيل، ووظيفة هامة، وكان

---

(١) البخاري، تفسير سورة (١١١) ١-٣؛ مسلم، الإيمان، ٣٥٥

عليه أن يتهيأ لها منذ الآن. كان عليه بلوغ الذروة في التوكل على الله، والاستعداد لمواجهة جميع الصعاب والمشاكل.. وقد حفظه الله تعالى من الغنى المفرط المؤدي إلى البطر والكبرياء، ومن الفقر المدقع المؤدي إلى الذل والعجز، وأنشأه شخصاً معتدلاً ومستقيماً في شؤون حياته طوال عمره، بعيداً عن الإفراط والتفريط.

إن من المهم جداً للقائد أن يمر بمثل هذه الأيام الصعبة.. فمن عرف معنى اليتم، يعرف كيف يكون أباً رحيماً على أمته، عطوفاً عليها.. كان عليه أن يذوق طعم الفقر لكي يحس بمعاناة الذين يقوم بأمر إدارتهم، وتصريف شؤون حياتهم. وهكذا، فإن خُلُق مساعدة اليتامى الفقراء، ومعاونتهم، والحدب عليهم، ورعايتهم، والاهتمام بهم كان من ضمن الخلق العظيم لرسول الله ﷺ الذي امتدت جذوره إلى هذه المرحلة من حياته، وشربت من مائها، وتنفست من هوائها. وعندما ارتقى الذُرى فيما بعد، لم يتخلَّ عن هذا الخلق و لم يتبدل، و لم يغير سمة حياته البسيطة المتقشفة، فلم يقهر طوال حياته يتيماً، و لم يرد سائلاً و لم ينهره؛ ذلك لأن هذا الخلق كان مما علّمه الله ﷻ، وربّاه عليه حينما قال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ۞ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ۞ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ۞ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ۞ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَر ۞ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: ٦-١١).

وأنا كلما قرأت هذه السورة خطر على بالي أن أعرض يتمي على رسول الله ﷺ باعتباره شفيعاً لنا -مع أنني فقدتُ والدي منذ سنوات- فأقول له: "يا رسول الله! ها أنا ذا يتيم، واقف على عتبة بابك، فلا تطردني عن بابك، ولا تحرمني من شفاعتك."

٥- نور مرتقَب

كان جده عبد المطلب قد استشفّ فيه نور النبوة من زمن طويل، فقد كانت جميع أيامه معه أيام يمن وبركة؛ فكان يأخذه معه إلى مجالس الكبراء، ويكرمه هناك، فلربما رأى فيه منقذ البشرية، إذ كان يرى في نظرات عينيه عمقاً لم يره في أحد. كما أنه قد سمع الروايات المنقولة عن "لُؤَيّ" -أحد أجداده- حول ظهور نبي من نسله؛ واستناداً إلى هذه البشارة، لعله اكتشف علامات النبوة أو استشفها فيه، ولعل هذا كان هو السبب في حبه الشديد وشغفه الكبير بحفيده حتى أنه يغار عليه من عينيه. وعندما حضرته الوفاة بكى بكاء شديداً.. بكى لأنه لن يستطيع بعد الآن أن يضم محمدا إلى صدره..[1] بكى هذا الشيخ هذا البكاء، وهو الذي لم تطرف عيناه أمام جيش أبرهة، و لم تدمع عيناه في حرب الفِجار مع القبائل العديدة المعادية التي استمرت سنوات عديدة، ولكن هذا الشخص العظيم بكى مثل طفل صغير قبيل فراق حفيده السعيد. وهكذا انتهت وصاية عبد المطلب و كفالته بوفاته وتوديعه للحياة، و كان على لؤلؤة الخَلق وجوهرته أن ينتقل إلى كفالة عمه أبي طالب.

٦ـ مكافأة جزيلة

وفى أبو طالب بوعده، فحمى رسول الله ﷺ مدة أربعين سنة تقريباً وسانده. و لم يبق معروفه هذا دون مقابل، إذ وهبه الله تعالى ابناً مثل علي ﷺ، وبينما كان نسل كل نبي يستمر عن طريقه، إلا أن نسل رسول الله ﷺ استمر

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ١/١٧٨؛ «الطبقات الكبرى» لابن سعد ١/١١٨

عن طريق علي كرم الله وجهه، وهناك رواية عن رسولنا في هذا الخصوص.[1]

كان علي ﷺ يمثل جانب الولاية لرسول الله، إذ يُعدّ من هذه الناحية أمير الأولياء؛ فجميع أرباب الطرق ورجالهم سيذكرونه بالتقدير والأجلال حتى يوم القيامة وسينقادون له. فعلي المرتضى، الفارس المغوار، والحيدر الكرار، وصهر رسول العالمين ﷺ كان هدية رب العالمين لأبي طالب، جزاء العناية التي أبداها لرسوله الكريم، والمؤازرة التي قدمها له. وما كان أبو طالب ووالده عبد المطلب إلا أسباباً ظاهرية، وإلا فإن الله ﷻ كان هو صاحب الحماية الحقة له، وصاحب العناية به.

فبينما كان يرفع هذه الشخصية النادرة، ويسمو به إلى مرتبة النبوة، كان في الوقت نفسه يهيئ المجتمع لقبوله، إذ أصبحت إيماءات نبوته وعلاماتها تتضح يوماً بعد يوم، وأصبح محمد ﷺ شخصاً يتحدث عنه الكل، ويعرفه الجميع.. شخصاً ذا أهمية كرجل هذه الساعة ورجل كل ساعة.

(١) في الحديث: «إن الله تعالى جعل ذرية كل نبي في صُلبه وجعل ذريتي في صلب علي بن أبي طالب.» («**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١٧٢/٩؛ «**فيض القدير**» للمناوي ٢٢٣/٢؛ «**تاريخ بغداد**» للبغدادي ٣١٧/١)

ج. علامات النبوة

١- رحلته إلى الشام والراهب بَحيرَى

تشير كتب السير كلها إلى أن رحلته الأولى كانت إلى الشام مع عمـه أبي طالب عندما كان عمره اثني عشر عاماً. وعندما حطّت القافلـة في الطريـق للاستراحة تُرِكَ رسول الله حارساً وناظراً لها. في هذه الأثناء لاحظ راهب اسمه "بَحِيرَى" -يتلفظه البعض "بُحيْرى" خطأً- أمراً غريباً في هذه القافلة التي كان يراقب سيرها، إذ لاحظ أن هناك غيمة تتعقبها وتظللها، فإن سارت القافلـة سارت معها، وإن وقفت وقفت معها. لذا، أرسل هذا الراهب من يدعو جميع أفراد هذه القافلة إلى تناول الطعام معه. وقد دهش أفراد القافلـة مـن هـذه الدعوة، فهذا الراهب لم يكن ليهتمّ بالقوافل من قبل. واستجاب للدعوة جميع أفراد القافلة عدا سيدنا محمد ﷺ، إلا أن الراهب لم يجد فيهم ضالته، فـسألهم عما إذا كان أحد من القافلة قد تأخر عن حضور مأدبته، وعلى إثر الجـواب الذي تلقاه منهم أرسل إليه يدعوه كذلك، وما أن رآه حتى علم أنه ضـالته، وتوجه إلى أبي طالب يسأله عنه، فقال أبو طالب "إنه ابني"، ولكن الراهب لم يشأ تصديقه، ذلك لأنه توسم فيه أنه ضالته التي يطلبها.. إذن، فوالده يجب أن يكون متوفّى قبل ولادته. ثم دعا أبا طالب وأسرّ في أذنه بوجوب تخلّيه عن هذا السفر، وقال له بأن اليهود قوم يغلب عليهم الحسد، وأنهم ما إن يعرفوا مـن سيماه بأنه هو خاتم الأنبياء حتى يتعرضوا له بالأذى لكونـه لـيس منـهم.

واستجاب أبو طالب لنصيحته، وانسحب من القافلة بعد أن أبدى لأصـــحابه عذراً ما، ورجع بمحمد ﷺ إلى مكة.[1]

كان الراهب "بَحيرَى" محقّاً في كلامه، ولكن غاب عنه شيء واحد؛ وهو أن رسول الله ﷺ كان في حماية رب العالمين، حيث إن الآية الكريمـــة: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧) تشير إلى هذه الحماية والعصمة. أجل، كان هذا هو ما يقوله له ربه، وقد صدق له وعده.

٢ـ رحلته الثانية إلى الشام

قام فخر الكائنات برحلته الثانية إلى الشام، وعمره خمس وعشرون ســـنة. كان على رأس القافلة التي أرسلتها خديجة رضي الله عنها، وكان يعمل معهـــا. وفي هذه الرحلة أيضاً التقى راهباً آخر اسمه "نَسْطُورَا"، وقد تَوسَّم هذا الراهب فيه أيضاً علامات النبوة.[2]

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ١/١٩١-١٩٥

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام ١/١٩٩

د ٠ النبي المرتقب والمبشر به

١ ـ دعاء إبراهيم وبشارة عيسى عليهما السلام

سأله أحد الصحابة يوماً: ما كان بدءُ أمرك؟ فقال: «أنا دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى بن مريم.»[1] ويتناول القرآن الكريم هذا الموضوع في آيتين مستقلتين:

الأولى: دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُم يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٩).

الثانية: بشرى عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الصف: ٦).

أجل، فرسول الله ﷺ لم يظهر هكذا فجأة، بل هو نبي تمّت البشارة بقدومه منذ عصور وعصور، وكان العالم بأسره في انتظاره.

إن أكبر دليل وبرهان على نبوته هو هذا القرآن الكريم الذي يُعدّ معجزة خالدة أبد الدهر. أجل، ففي القرآن ذي البيان المعجز مئات من الآيات التي تدل وتبرهن على نبوة فخر العالمين. فمن لم يستطع إنكار القرآن بأجمعه، لا

---

(١) «كنز العمال» للهندي ٣٨٤/١١

يستطيع إنكار نبوته أبداً. غير أن هذا موضوع مستقل لن نتناوله الآن، وشروح الآيات القرآنية التي سنعرضها كأدلة، كلما جاء موضعها، ستساعد في إيضاح هذا الموضوع بعض الشيء.

٢ـ بشارات التوراة

ستتناول هنا بعض البشارات التي لا تزال موجودة في التـــوراة والإنجيـــل والزبور حول رسول الله ﷺ على الرغم من تعرّض هذه الكتب إلى مئات مـــن التحريفات. ومن أراد التفصيل في هذا الموضوع، فعليه بمراجعة الكتب الـــتي شَرحت وفصّلت هذا الموضوع، ولاسيما كتاب "الرسالة الحَميدية" للـــشيخ حسين الجِسْر، أما هنا فسنكتفي بإيراد بعض هذه الأدلة التي نراها مهمة.

أ. جبال فاران

جاء في الترجمة العربية لنسخة التوراة المطبوعة في إنكلترة عام ١٩٤٤ مـــا يأتي: [جاء الله من سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبـــال فـــاران.] (التثنية - الباب: ٣٣، الآية: ٢)، أي أن رحمة الله ﷻ وفـــضله علـــى الإنـــسانية ظهرت في سيناء، وهي الموضع الذي كلم الله تعالى فيه الـــنبي موســـى ﷺ، وهذه الرحمة هي النبوة التي أعطيت لموسى ﷺ؛ أما ساعير فهـــو فلـــسطين، وتجلت رحمة الله تعالى فيه بإرساله الوحي إلى عيسى ﷺ. والمسيح ﷺ من الأنبياء العظام، وموضع تجليات وأفضال عديدة لله ﷻ؛ ونظراً لأن العديـــدين التبس عليهم مفهوم التجلي مع مفهوم الظهور، فقد أدى هـــذا إلى مـــشاكل عديدة.

أجل، فإن التجلّي عند عيسى عليه السلام هي النفخة الإلهية في مولده؛ أمـــا في جبال فاران فقد ظهر الله تعالى فيها بسر أحديته، ومقام فرديته. وفاران هـــي مكة، إذ ورد في موضع آخر من التوراة بأن إبراهيم عليه السلام ترك ابنه إسماعيل في فاران، إذن، فإن المقصود من فاران في التوراة هي مكة. فالبـــشارات الثلاثـــة متعلقة بالنبي موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام ومحمد عليه الصلاة والسلام الذي هو خاتم الأنبياء.

وتستمر هذه الآية من التوراة بالعبارة التالية: [ومعه ألوف الأطهار، في يمينه سنّة النار.[1]][2] وهي تدل على أنه سيكون مأموراً بالجهاد.

من المعلوم أن رسول الله ﷺ كان يعتكف قبيل نـــزول الـــوحي في غـــار حراء، حيث يتأمل ويَتحنّث فيه، وكان أول نـــزول الوحي عليـــه في هـــذا الغار.[3] فإذا لم يكن فاران مكة، فأيّ مكان يكون إذن؟ وأيّ مكان شعّ نوراً مثل الدين الإسلامي الذي ظهر منه، وانتشر شرقاً وغرباً؟ ولـــمّا لم يكن هناك في العالم بأسره مكان آخر، فيه كل هذه المواصفات غير مكة، فإن فاران الوارد في التوراة لا يعني سوى مكة. وكما قلنا سابقاً، فإن الآية رقم ٢ من الباب ٣٣ من كتاب التثنية، والآية رقم ٢٠ من الباب ٢١ من كتاب التكوين، وهـــي: [وسكن برّية فاران.] تشير إلى الموضع الذي سكن فيه سيدنا إسماعيـــل عليه السلام.

---

(١) سِنّة النار: أي فأس من النار ذو رأسين. (المترجم)

(٢) في الطبعة الإنكليزية للتوراة وردت هذه الآية هكذا: [ومعه عشرة آلاف من الأطهار.] وهـــي تشير إلى فتح مكة، غير أنهم حذفوا [عشرة آلاف] من التراجم العربية. (المترجم)

(٣) البخاري، بدء الوحي، ٣؛ مسلم، الإيمان، ٢٥٢

وهذا دليل واضح وقاطع على أن فاران هو مكة، وليس بمقدور أحد أن يثبت العكس، والاعتراضات التي أثيرت في هذا الموضوع اعتراضات سطحية وغير علمية. ثم إن ختام الآية التي تشير إلى أصحابه، وإلى كونه مكلفاً بالجهاد لا يدع مجالاً لأي شك أو شبهة في أن رسول الله محمداً ﷺ هو المقصود، وهو المعنيّ.

ب. من نسل إسماعيل عليه السلام

والآية الثانية من التوراة تقول: [وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوتهم، وأجعل كلامي في فمه، ويكلمهم بكل شيء آمر به] (التثنية – الباب: ١٨، الآية: ١٨).

فالله عز وجل يخاطب موسى عليه السلام ويقول له: إنني سأرسل لهم، أي لبني إسرائيل نبياً مثلك من بين إخوتهم، وسأجعل كلامي في فمه لكي يبلغهم بأوامري.

والآية رقم ١٩ التي تكمل هذه الآية هي: [ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي فأنا أكون المنتقم من ذلك].

وتعبير "إخوة بني إسرائيل" الواردة في تلك الآية، تشير إلى نبي يأتي من نسل إسماعيل عليه السلام، والنبي الوحيد الذي أتى من نسل إسماعيل عليه السلام هو نبينا محمد ﷺ. ثم إن الآية تشير إلى أن هذا النبي سيأتي بشريعة مثلما أتى موسى عليه السلام بشريعة. كما أن هذه الآية تومئ إلى أن النبي المبشر به سيكون أُمياً.

أما الانتقام من غير المطيعين المذكور في الآية فتشير إلى الحدود والعقوبات، وهي غير موجودة إلا في الدين الإسلامي. ولا يمكن أن يكون عيسى عليه السلام ولا يوشع عليه السلام النبي المبشر به في التوراة على الإطلاق، ذلك لأن هذين النبيين هما

من بني اسرائيل. ثم إن عيسى عليه السلام لم يأت في معظم المسائل بأحكام جديدة أو بشريعة جديدة، بل كان متبعاً لشريعة موسى عليه السلام.

أما يوشع فمن الواضح جداً أنه لا يشبه موسى عليه السلام، لأنه لم يأت بشريعة جديدة، بينما تشير الآية الكريمة: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾ (المزمل: ١٥) إلى وجه الشبه بين موسى عليه السلام ونبينا عليه الصلاة والسلام. والحقيقة أنه لا حاجة بعد هذا إلى أي دليل آخر.

ج. صفاته الأخرى

كان قد اشتهر عبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن سلام وكعب الأحبار رضي الله عنهم بأنهم أعلم الناس بالكتب القديمة. ويروى عنهم أن التوراة التي لم تكن قد حُرّفت بنسبة تحريفها الحالي، كانت تحتوي على هذه الآية: يا أيها النبي، إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحِرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سمّيتُك المتوكّل، ليس بفَظّ ولا غليظ ولا سَخّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئةَ، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يُقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله.[1]

والآن لنفكر: مَن المقصود بهذا في التوراة؟ لا نحتاج حتى إلى تحليل عميق لندرك أن المعنى الظاهري لهذه الآية يتعلق بنبي سيأتي، وندرك من الآية أن هذا النبي ليس سوى النبي محمد ﷺ، فقد أرسل رحمة للعالمين وللناس أجمعين، فكأن هذه الآية تقول له:

(١) البخاري، البيوع، ٥٠؛ «المسند» للإمام أحمد ١٧٤/٢

إنا نرسلك أيها النبي إلى العالمين مبشراً بالطريق القويم، والصراط المستقيم، ونذيراً لسالكي الطرق المعوجة الملتوية من وخامة العاقبة. ستقف أمام جميع الشرور والرذائل لتَحول دون سقوط الناس في هاوية السعير، وستكون نوراً وضياء للتائهين في ظلام هذه الطرق الملتوية لتقودهم من أيديهم إلى الجنة، وإلى رضاء الله.

إنا أرسلناك حِرْزاً للأميين في عهد الجاهلية وملاذاً، فطالما اتبعوك واستندوا إليك، فسيكونون في حرز وأمان، وفي رحمة من الله وفضل. أنت عبدى ورسولي -أجل، فنحن نشهد دوماً في الصلاة عندما نقرأ التحيّات أنه عبد الله ورسوله- لقد وضعتُ لك اسم وصفة "المتوكل"، فلو خاصبمك العالم بأسره، وعاداك وحاربك لَما اهتزّت منك شعرة واحدة. أجل، فلكل نبي أفق خاص به في التوكل، أما أنت فلك شأن آخر في هذا الخصوص، لذا فقد سميتك "المتوكل".

ثم يتوجه هذا الخطاب إلى الغيب: هو ليس بالشخص الصخّاب الغضبان على الدوام، الفظ الغليظ، بل صاحب أدب وخلق ووقار ورزانة، ليس بالشخص الذي يصرخ ويشتم في الأسواق، ذلك لأن هذا الأسلوب في جلب اهتمام الناس ليس إلا دليل ضعف، وعلامة غرور.. وهو بعيد عن مثل هذه الصفات الذميمة ومبرأ منها.

لا يقابل السيئة بالسيئة والشر بالشر.. يأتي إليه أحد الأعراب، ويجرّه من ردائه بقوة قائلاً له: "أعطني حقي!" فلا يقابل النبي ﷺ هذه المعاملة الخشنة التي تثير الغضب في نفوس صحابته إلا بالتبسم، ثم يقول لأصحابه: «أعطوه حقه.»[1]

---

(١) أبو داود، الأدب، ١؛ «المسند» للإمام أحمد ٣٧٧/٢

أجل، لقد كان يعفو عن أكبر الذنوب، ولكن بشرط ألا ينتهك شـــرع الله. تأملوا سماحته وحلمه وعفوه مع أهل مكة -الــذين آذوه أذى شـــديداً طـــوال سنوات- بعد فتحها، وبعد أن أصبح قادراً على أن يفعل بهم ما يشاء، ولكنه قال لهم: «اذهبوا فأنتم الطُلَقاء.»[1]

وَعَد الله ألا يتوفاه ويرفعه إليه إلا بعد أن يهتدي أهل الجاهلية التـــائهين في ظلمات الباطل بالنور الذي أرسل به. وأنجز الله وعده، فلم يلتحـــق بـــالرفيق الأعلى إلا بعد أن أكمل الله دينه، وأتم نعمته، وربّى صحابة له، وأتباعاً يمثلون هذا الدين أصدق تمثيل. عند ذلك فقط، كانت مهمته قد انتهت، ووظيفته قد استوفيت.. إذن، كان يستطيع أن يفارق الناس، ويلتحق بحبيبه الحقيقي.. فقد أدى رسالته في الدنيا.

أجل، كانت التوراة تصفه بهذه الصفات، وعندما حان موعد مجيئـــه، جـــاء وهذه الصفات بأجمعها متحققة فيه. فالحقيقة أن ما ورد في التوراة يتطابق مـــع سيرة رسول الله ﷺ، إذن، فمن هو النبي الكريم الذي تذكره التـــوراة؟ أهنـــاك شخص آخر في التاريخ تتطابق حياته مع ما جاء أعلاه؟ كلاّ دون شـــك. إذن، فالمقصود هو الرسول محمد ﷺ، وليس غيره.

٣ـ بشـــارات الإنجيل

أ. فارقليط

جاء في إنجيل يوحنا: [قال المسيح: إنني ذاهب إلى ربي وربكم لكي يرسل

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٥٥/٤

لكم فارقليط، الذي سيأتي إليكم بالتأويل] (الباب: ١٦، الآية: ٧). ويأتي فارقليط بمعنى روح الحق، الذي يفرق بين الحق والباطل.

أجل، إن رسول الله هو روح الحق، ذلك لأن القلوب الميتة لا تحيا إلا بالحق الذي جاء به. وقد بذل كل شيء، وكافح لكي يوصل الهداية إلى الناس، ولم يتميز الحق عن الباطل إلا بعد هذا الجهاد وهذا الكفاح. إذن، فقد جاء فارقليط الذي بشر به المسيح ﷺ، وهو خاتم النبيين والمرسلين محمد رسول الله ﷺ.

وجاء في إنجيل يوحنا (الباب: ١٤، الآية: ١٥، ١٦): [إن كنتم تحبونني أطعتم أوامري، أما أنا، فسأبتهل إلى الرب ليرسل لكم معيناً آخر، وروح الحقيقة "فارقليط" لكي يبقى معكم على الدوام.] والآن لنتأمل هذه الآيات: [فارقليط هو روح القدس الذي سيرسله الرب باسمي أي نبياً مثلي. سيعلمكم كل شيء، وسيذكّركم بما قلته لكم] (يوحنا - الباب: ١٤، الآية: ١٤).

[عندما يأتي فارقليط سيشهد لي، وستشهدون أنتم لي] (يوحنا - الباب: ١٥، الآية: ٢٦-٢٧). [ولكني أقول لكم الحق: من الأفضل لكم أن أذهب، لأني إن كنت لا أذهب لا يأتي فارقليط إليكم، ولكني إن ذهبت، أرسله إليكم] (يوحنا - الباب: ١٦، الآية: ٧). [وعندما يأتي فارقليط يُبكّت العالَم على الخطيئة] (يوحنا - الباب: ١٦، الآية: ٨).

جاء الإنجيل باللغة العبرانية في البداية، ثم ترجم إلى اللغة اليونانية، والتراجم العربية الموجودة في أيدينا مترجمة عن اليونانية، ولما كانت كلمة "فارقليط" واردة في الترجمة الأولى إلى اليونانية، فإننا لا نعرف الكلمة الأصلية المقابلة لها

في العبرية، وفارقليط هي الترجمة العربية لهذه الكلمة في اليونانية، أي أنها دخلت إلى العربية عن طريق التعريب، إلا أننا لن نقف عند هذه الكلمة لنبني موضوعنا عليها، بل سنحاول رؤية جميع صفات النبي الذي بَشّر بها الإنجيل، وكيفية تطابقها، وملاءمتها مع صفات رسولنا ﷺ.

لنجعل من كلمات عاشق للنبي ﷺ عنواناً.. أجل، فما أجمل ما قاله مولانا جلال الدين الرومي:

بود در انجيل نعت مصطفى آن سر پيغمبر ان بحر صفا

بود ذكر حليها وشكل او بو ذكر غزو صوم واكل او

أي:

نعت المصطفى ﷺ موجود في الإنجيل،

هو سر الأنبياء وسر بحرهم الصافي،

صفاته وشمائله وغزواته وصومه وأكله،

موجود كله في الإنجيل.

ب. رئيس العالم

جاء في إنجيل يوحنا (الباب: ١٤، الآية: ٣١) قول المسيح عليه السلام: [لن أكلّمكم كثيراً بعد، فإن سيد هذا العالم قادم عليّ، ولا شيء له فيّ.] وتقول (الآية: ٨ وما بعدها في الزبور، الباب: ٧٢): [ستمتد مملكته من البحر إلى البحر، ومن النهر إلى أقاصي الأرض.. أمامه يركع أهل البادية.. ملوك تَرْشِيش والجزر يحملون إليه

الهدايا.. ملوك الشّبا وسبأ يقدمون عطايا.. ينحني أمامه جميع الملوك، وتتعبد له كل الأمم، لأنه ينقذ المسكين المستغيث البائس الذي لا معونة له.. يعطف على الفقير والمحتاج، ويخلص نفوس المساكين إذ يفتدي نفوسهم من الظلم والعنف، ويحفظ حياتهم، لأنها ثمينة في عينيه، ليحيي الملك، ليعط له ذهب شبا، وليصلوا من أجله دائماً، ويطلبوا له بركة الله كل النهار. لتتكاثر الغـــلال في الأرض، وعلى رؤوس الجبال، وتتماوج مثل أرز لبنان، ويُزهر أهل المدينـــة كعـــشب الأرض.. يخلد اسمه إلى الدهر، ويدوم اسمه كديمومة الشمس، ويتبارك الناس به، وتُطوّ به كل الأمم.]

وكما قلنا آنفاً، فإننا دخلنا إلى هذا الموضوع استطراداً ومن أجل إعطـــاء فكرة مختصرة، وليس في نيتنا الدخول إلى تفاصيله، إلا أننا لا نملك هنا أنفسنا من القول بأنه على الرغم من جميع محاولات النصارى واليهـــود حاليـــاً أو في الماضي من الذين تغلغل الغل والحسد إلى عروقهم ونفوسهم، وعلى الرغم من جميع محاولات التحريف التي قاموا بها، فإن التوراة والإنجيل الموجودين حاليـــاً يحفلان بالكثير من البشارات حول نبوة رسول الله ﷺ، والعديد من الإشارات إليه. وأنا أعتقد أنه بجهود المحظوظين من مؤرّخينا قد نعثر على النُسخ الأقـــلّ تعرّضاً للتحريف للتوراة والإنجيل والزبور، وعندئذ سيرى فيها الجميـــع حـــتى العامة من الناس الإشارات الصريحة الواضحة التي لا تحتاج إلى أي تفـــسير أو تأويل حول نبوة رسول الله ﷺ، ولعل الأحاديث التي تخبر عن رجوع المسيحية إلى نقائها القديم إشارة إلى هذا الأمر.(١)

---

(١) البخاري، الأنبياء، ٤٩؛ مسلم، الإيمان، ٢٤٤-٢٤٧

ومن جانب آخر، فإنه من الثابت في القرآن والسنة أن التوراة والإنجيل يشيران إلى النبي ﷺ وإلى أصحابه، لذا فإن إنكار هذا الأمر يعد انحرافاً وكفراً.[1]

(١) انظر: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، ﴿...ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ...﴾ (الفتح: ٢٩)، ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الصف: ٦). وانظر إلى: (البخاري، البيوع، ٥٠؛ «المسند» للإمام أحمد ١٧٤/٢). وإذا أردت التفصيل فانظر إلى: «الخصائص الكبرى» للسيوطي ١٨/١-٣١.

هـ . قدوم طال انتظاره

لم يكن من ينتظره ويبشر بقدومه واحداً أو اثنين، بل كانوا كثيرين، وكان زيد بن عمرو بن نُفَيْل واحداً منهم -وهو والد الصحابي سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرة بالجنة وابن عم عمر بن الخطاب ﷺ- فقد كان من الأحناف، إذ هجر الأصنام ذاكراً أنها لا تضر ولا تنفع. ولكنه كان من الذين توفّوا وهم على أعتاب ظهور النبوة، وكانت له بشارات، أهمها قوله: "إنني أعرف أن ديناً جديداً قد أطلّ، ولكني لا أعرف إن كنتُ أدركه أم لا!"

كانت نسمة قد مسّت قلب زيد.. كانت بمثابة نفحة ربانية فتحت مصاريع هذا القلب تماماً لاستقبال الحق، فكان يؤمن بالله الواحد ﷻ، ويسلم نفسه إليه، ولكنه لم يكن يدري الإله الذي آمن به، ولا يدري كيف يعبده.

ويروي لنا أحد الصحابة وهو عامر بن رَبيعة ما يأتي: سمعت زيد بن عمرو بن نُفَيْل يقول: "أنا أنتظر نبيّاً من ولد إسماعيل، ثم من بني عبد المطلب، ولا أراني أدركه. وأنا أومن به، وأصدّقه وأشهد أنه نبي، فإن طالت بك مدة فرأيتَه فأقرئه مني السلام، وسأخبرك ما نَعْتُه حتى لا يخفى عليك." قلتُ: هلمّ! قال: "هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير ولا بكثير الشعر ولا بقليله، وليست تفارق عينَه حمرة، وخاتم النبوة بين كتفيه، واسمه أحمد، وهذا البلد مولده ومبعثه. ثم يُخرجه قومه منها، ويَكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلى يثرب، فيظهر أمره. فإياك أن تخدع عنه، فإني طُفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم.

فكان من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون هـذا الـدين وراءك، وينعتونه مثل ما نعتّه لك، ويقولون لم يبق نبي غيره."

قال عامر بن ربيعة: فلما أسلمت أخبرت رسول الله ﷺ بقول زيـد بـن عمرو، وإقراءه السلام فرد ﷺ وترحم عليه وقال: «رأيتُه في الجنة يـسحب ذُيولاً.»[1]

كان ورقة بن نوفل عالـماً نصرانيّاً، وكان ابن عم أمّنا خديجة رضـي الله عنها، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي.

وعندما نـزل أول وحي على النبي ﷺ انطلقت به خديجة إلى ورقة فقالت له: يا ابن عمّ، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا تـرى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: "هذا الناموس الذي نَـزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَع، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك"، فقال رسول الله ﷺ: «أوَ مخرجيّ هم؟» قال: "نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُوديَ، وإن يدركني يومك، أنصرك نصراً مُؤَزَّراً."[2]

أما عبد الله بن سلام، فكان عالـماً يهودياً. لنستمع إليه وهـو يـشرح كيفية إسلامه: لما قدم النبي ﷺ انجفل الناس عليه، فكنت فيمن انجفل، فلمـا تبيَّنْتُ وجهَه عرفتُ أنّ وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شـيء سمعتـه

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ٢/٢٩٦-٢٩٩

(٢) البخاري، بدء الوحي، ٣؛ مسلم، الإيمان، ٢٥٢

يقول: «أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصِلوا الأرحام وصَلُّوا والنـــاس نيـــام تدخلوا الجنة بسلام.»[1]

كان عبد الله بن سلام شخصية مهمة، يقول عنه ابن حجر في كتابه "الإصابة" إنه كان شخصاً مبرزاً، ومن نسل النبي يوسف عليه السلام.[2] ومدح القرآن شهادته وذكرها كدليل ضد الكفار فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأحقاف: ١٠).

وشاهد بني إسرائيل الوارد ذكره هنا، هو عبد الله بن سلام. ومع أن بعض المفسرين يذكرون بأن الشاهد المذكور في هذه الآية الكريمة هو النبي موســى عليه السلام على اعتبار أن هذه الآية مكية، ولكن الرأي الراجح هو أن هذه الآيـــة مدنية، أي أن سورة الأحقاف وإن كانت مكية، إلا أن هذه الآيـــة مدنيـــة، وتشير إلى عبد الله بن سلام.

---

(١) «المسند» للإمام أحمد ٤٥١/٥؛ الترمذي، الأطعمة، ٤٥، القيامة، ٤٢؛ ابن ماجـــه، إقامـــة الصلاة، ١٧٤، الأطعمة، ١

(٢) «الإصابة» لابن حجر ٣٢٠/٢

و. لماذا لم يؤمنوا؟

مع أن جميع اليهود والنصارى كانوا يعرفون أنه رسول الله إلا أن حقدهم وحسدهم كان يمنعهم من الإيمان به، ويقف حائلاً دون ذلك. وكانت هذه المعرفة دقيقة وواضحة إلى درجة أن نظرة واحدة منهم لرسول الله ﷺ كانت كافية للإيمان به، ذلك لأنهم كانوا يعرفون هيئة رسول الله ﷺ وشمائله وصفاته، ويشير القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة فيقول: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٤٦).

ولا يصرح الله تعالى في هذه الآية باسم نبيه، بل يذكره بضمير الغائب (ـه)، وهذا يشير إلى أن جميع أهل الكتاب كانوا يعرفون خاتم الأنبياء؛ لذا، فعندما ذكره بالضمير، كانوا يعرفون أنه يعني النبي المذكور اسمه في التوراة والإنجيل، وهو سيدنا أحمد أو محمد عليه الصلاة والسلام، إذ كانوا يعرفونه أكثر مما يعرفون أبناءهم.

ويروى عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال لعبد الله بن سلام: "أتعرف محمداً كما تعرف ولدك؟" قال: "نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته، وابني لا أدري ما كان من أمه." [١]

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» للصابوني ١/١٤٠؛ وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي ١/٣٥٧

١ ـ الغيرة والحسد

أجل، لقد كانوا يعرفون رسول الله ﷺ معرفة جيدة، ولكن الإيمان شيء، والمعرفة شيء آخر.. كانوا يعرفونه ولكن لا يملكون الإيمان به؛ فغيرتهم وحسدهم وقفا حائلين أمام إيمانهم، ومانعين له.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٨٩). يشرح الله تعالى في هذه الآية السبب الحقيقي لعدم إيمانهم برسول الله ﷺ؛ فالقضية كلها تنحصر في عدم كون خاتم الأنبياء يهودياً. فلو ظهر رسول الله ﷺ من بين اليهود، لكان تصرفهم مختلفاً دون شك.

والدليل على هذا أن عبد الله بن سلام بعد أن أسلم قال لرسول الله ﷺ: "يا رسول الله! إن اليهود قوم بُهْتٌ، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بَهَتُوني عندك." فجاءت اليهود ودخل عبد الله البيت، فقال رسول الله ﷺ: «أيّ رجل فيكم عبد الله بن سلام؟» قالوا: أعلمُنا وابن أعلمنا، وأخيَرُنا وابنُ أخيَرِنا. فقال رسول الله ﷺ: «أفرأيتم إن أسلم عبد الله؟» قالوا: أعاذه الله من ذلك! فخرج عبد الله إليهم فقال: "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله." فقالوا: شرّنا وابن شرّنا. ووقعوا به.[1]

وهذه الحادثة تبين بجلاء أن اليهود كانوا يعرفون رسول الله ولا يجهلونه، غير أن عنادهم منعهم من الإيمان به.

---

(١) البخاري، الأنبياء، ١، مناقب الأنصار، ٥١؛ «المسند» للإمام أحمد ١٠٨/٣، ٢٧١، ٢٧٢

ويُعدّ سلمان الفارسي ﷺ دليلاً قائماً وحده في هذا الموضوع.. فقد كان مجوسياً أول الأمر، ولكنه كان يتحرّق شوقاً للعثور على الدين الحق، فدخل إلى المسيحية وتنصّر واعتكف في الكنيسة، وعندما حضرت الراهبَ المنتسب إليه الوفاةُ سأله أن يوصيه براهب آخر، فوصفه له، وهكذا انتقل من راهب إلى راهب، وصحب كثيراً منهم، وأخيراً سأل السؤال نفسه من راهب شيخ يعيش الدقائق الأخيرة من حياته، فقال له ذلك العالم النصراني:

أيْ بنيّ، واللهِ ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك به أن تأتيه، ولكنه قد أظل زمان نبي، وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام، يخرج بأرض العرب، مُهاجَره إلى أرض بين حَرّتين،[1] بينهما نخل به علامات لا تخفى، يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

قال ثم مات، وغُيّب، ومكثت بعَمُّورية ما شاء الله أن أمكث، ثم مر بي نفر من كَلْب[2] تجّار، فقلت لهم: احْمِلوني إلى أرض العرب، وأعطيكم بقراتي هذه، وغُنيمتي هذه. قالوا: نعم، فأعطيتهموها، وحملوني معهم، حتى إذا بلغوا وادي القُرى ظلموني، فباعوني من رجل يهودي عبداً، فكنت عنده، ورأيت النخل، فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يَحِقَّ في نفسي. فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة، فابتاعني منه، فاحتملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي، فأقمت

---

(١) الحَرّة: كل أرض ذات حجارة سود. (المترجم)

(٢) كَلْب: اسم قبيلة عربية. (المترجم)

بها. وبُعث رسول الله ﷺ، فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق. ثم هاجر إلى المدينة، فوالله إني لفي رأس عَذْق[1] لسيدي أعمل له فيه بعض العمل وسيدي جالس تحتي، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه، فقال: يا فلان، قاتل الله بني قَيْلَة، والله إنهم الآن لمجتمعون بقُباء[2] على رجل قدم عليهم من مكة اليوم، يزعمون أنه نبي.

قال سلمان: فلما سمعتها، أخذتني العُرَواء[3] حتى ظننت أني سأسقط على سيدي، فنزلت عن النخلة، فجعلت أقول لابن عمه ذلك: ماذا تقول؟ فغضب سيدي، فلكمني لكمة شديدة. ثم قال: ما لك ولهذا! أَقْبِلْ على عملك. قلت: لا شيء، إنما أردت أن أستثبته عما قال.

وكان عندي شيء قد جمعته، فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقُباء. فدخلت عليه، فقلت له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء قد كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحقَّ به من غيركم. قال: فقربته إليه، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «كلوا!»، وأمسك يده فلم يأكل. فقلت في نفسي: هذه واحدة. قال: ثم انصرفت عنه، فجمعت شيئاً، وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم جئته به، فقلت: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها. قال: فأكل رسول الله ﷺ منها، وأمر أصحابه فأكلوا معه. قال: فقلت في نفسي: هاتان ثنتان.

---

(١) عَذْق: النخلة. (المترجم)

(٢) قُباء: أصله اسم بئر عُرفت القرية بها. (المترجم)

(٣) العُرَواء: الرعدة والانتفاض. (المترجم)

ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببَقيع الغَرْقَد،[1] قد تبع جنازة رجل من أصحابه، وعليّ شملتان[2] لي، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي. فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وُصف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فأكببت عليه أقبّله وأبكي، فقال رسول الله ﷺ: «تحوّلْ!» فتحولت فجلست بين يديه، فقصصت عليه حديثي، فأعجب رسولَ الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابُه.[3]

٢ـ شعور المنافسة

يقول المغيرة بن شعبة: إن أول يوم عرفتُ رسول الله ﷺ أني أمشي أنا وأبو جهل في بعض أزقة مكة، إذ لقينا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: «يا أبا الحكم! هل لك إلى الله وإلى رسوله، وأدعوك إلى الله؟» فقال أبو جهل: يا محمد هل أنت مُنْتَه عن سب آلهتنا؟ هل تريد إلا أن نشهد أنك قد بلّغت؟ فنحن نشهد أن قد بلّغت، فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حق لاتّبعتك. فانصرف رسول الله ﷺ، وأقبل عليّ فقال: والله إني لأعلم أن ما يقول حق، ولكن يمنعني شيء: إن بني قُصَيّ قالوا: فينا الحِجابة، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا السِقاية، فقلنا نعم، ثم قالوا: فينا الندوة، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا اللواء، فقلنا نعم، ثم أطعموا فأطعمنا، حتى إذا تحاكّت الرُكَب قالوا: منا نبي. والله لا أفعل.[4]

---

(١) بَقيع الغَرْقَد: مقبرة أهل المدينة وهي داخل المدينة. (المترجم)

(٢) الشملة: الكساء الغليظ يشتمل به الإنسان أي يلتحف. (المترجم)

(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام ٢٢٨/١-٢٣٤

(٤) «البداية والنهاية» لابن كثير ٨٣/٣؛ «كنز العمال» للهندي ٣٩/١٤-٤٠

وفي رواية أخرى أن أبا جهل قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الرُكَب وكنّا كفرسيْ رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نسمع له أبداً ولا نصدقه.[1]

واجتمع رجال قريش وقرروا أن يرسلوا عُتْبة بن ربيعة لكي يكلم النبي، ويقنعه بالعدول عن دعوته. وكان عتبة هذا يعدّ من حكماء قريش، ومن المقدَّمين في قريش، وكان أديباً، وشخصاً موسراً. فقام عُتبة وذهب إلى الرسول ﷺ، وأراد أن يلعب معه لعبة المنطق، فقال له: يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال عُتبة: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ و لم يجبه. ربما كان سكوته هو الجواب المناسب للأحمق. فقال عتبة: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التي عبدت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم، فتكلم حتى نسمع قولك.

فقال رسول الله: «أفرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. فبدأ رسول الله ﷺ يقرأ عليه سورة فصلت: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ حٰمٓ ۞ تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ۞ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ۞ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۞ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۞ الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۞ إِنَّ الَّذِينَ

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ٨٣/٣

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۞ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۞ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (فصلت: ١-١٣).

فلما وصل النبي إلى هذه الآية ارتجف عُتبة كمن أصابته حُمّى، ومدّ يده إلى شفتي الرسول ﷺ قائلاً ومتوسلاً: اصمُتْ يا محمد بحق إلهك الذي تؤمن به! ثم قام عُتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلسوا إليه قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني والله قد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا الكهانة. يا معشر قريش أطيعوا واجعلوها بي. خلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونَنّ لقوله الذي سمعتُ نبأ، فإن تُصبْه العرب، فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يَظهر على العرب، فمُلكه ملككم، وعزّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سَحَرَكَ والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي لكم، فاصنعوا ما بدا لكم.[1]

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ٣/٨١-٨٢؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ١/٣١٣

٣- أسباب أخرى

لم تكن هذه الاعترافات اعترافات فردية تعود لشخص أو شخصين، بل كانت هذه قناعة عامة لديهم، ولكن أسباباً سلبية كانت تمنعهم من الإيمان به، مثل مشاعر الخوف والطمع والحرص والعناد. أجل، فمع أنهم يعلمون أنه نبي، إلا أنهم كانوا يعاندون في الإيمان به. ويشرح القرآن الكريم حالهم هذه وهو يسرّي عن الرسول ﷺ، فيقول: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام: ٣٣).

إنهم يلصقون بك تهماً عدة، وأنت تحزن من هذه الاتهامات الباطلة ولكن إياك أن تحزن مما يتقوّل عليك هؤلاء البائسون المغلوبون تحت ثقل أجسادهم، الأسارى بيد شهواتهم، العاجزون عن مغالبة عاداتهم. والحقيقة أنهم لا يكذبونك، إذ لا يستطيعون إسناد الكذب إليك، فأنت بريء من الكذب، وقد سبق وأن دعوك بـ"الأمين." وانظر إلى مدى حماقتهم، فهم لا يؤمنون بما يسندونه إليك، ومع ذلك يتجرؤون على ذلك.. إذن، فلا تحزن.

أجل، إن كان هناك من يجب أن يحزن فهو هؤلاء القوم الذين عادَوْا من بيده خير الدنيا والآخرة، والذين لم يفتحوا قلوبهم للنور وهم على مقربة منه.

ز . بُعد آخر وأفق آخر

إن الإنسان المسكين لهذا العصر، الذي فقد الكثير من مقـــاييس القـــيم، انقلبت نظرته وسلوكه وفكره تجاه رسولنا محمد ﷺ رأساً على عقب. هـــذا، علماً بأنه من الخطأ الجسيم القيام بتقييمه ﷺ بأي مقياس أو ميزان بشري. فهذا أمر مستحيل، ذلك لأنه كان شخصاً لا مثيل له، ولا نظير له، إذ زُوِّد بـــروح وبقابليات متميزة فريدة، وأُرسِل إلى الدنيا لكي ينظمها من جديد، وليفـــتح للإنسانية آفاقاً جديدة مشرقة. لذا، فإن تقييمه أمر يخرج عن نطاق قـــدرتنا، وعن نطاق مقاييسنا وموازيننا، لذا فمهما وصفه الواصفون فلن يوفوه حقـــه، ومن هذا المنطلق أنشد حَسّان بن ثابت ﷺ -وهو من أعرف الناس به- قائلاً:

وما مدحت محمداً بمقالتي ولكن مدحت مقالتي بمحمد [1]

فذكره السنيّ هو الذي يكسب الجمال للكلام الجميل وللكلمات الجميلة، وإلا فما من شيء في تعابيرنا يمكن أن يكسبه شيئاً. ويكرر الفرزدق المعـــنى نفسه، ولكن بتصرف قليل. ويستعمل مفكر العصر الكـــبير بـــديع الزمـــان النورسي المعنى نفسه عندما يتكلم عن القرآن الكريم:

وما مدحت القرآن بكلماتي ولكن مدحت كلماتي بالقرآن [2]

---

(١) المثل السائر لابن الأثير، ٢/٣٥٧؛ صبح الأعشى للقلقشندي، ٢/٢٣١

(٢) «المكتوبات» لبديع الزمان سعيد النورسي ص٤٧٧

كل هذا نتيجة الاشتراك في الشعور نفسه وفي الفكر نفسه، فكلــهم اســتقوا إلهامهم من نفس المنبع، ومن نفس المصدر؛ فأشاروا إلى الأشياء نفــسها بتعــابير مختلفة، فما أجمله البعض فصّله البعض الآخر، بينما عبّر الآخرُ عنه بأبيات الشعر.. ولكنهم كانوا يحومون حول المحور نفسه، ويطوفون حول المركز نفسه.

والأمر نفسه وارد بالنسبة إلينا، فنحن نريد أن نتحدث، وأن نعــبر عــن النعمة الكبرى المتميزة المهداة إلينا عندما أصبحنا من أمته، وأن نهتــف مــن أعماق قلوبنا بالحمد لله رب العالمين والشكر له، لأنه رآنا أهلاً لإسباغ نعمته الكبرى علينا بأن جعلنا من أمة المصطفى محمد عليه أفضل الصلاة والتــسليم. فهذا فضل إلهي، وهو يسبغ فضله ونعمته على من يشاء وبالمقدار الذي يشاء، إلا أن هذا الفضل لا يمكن أن يزنه ميزان أو يحدّه قياس.. فهو بحر واســع لا يحده ساحل، ولا ينتهي بشاطئ. إلا أن للمسألة وجهة أخرى لا أستطيع إهمالها ولا الهرب من السؤال الذي تطرحه: أنملك قلباً لائقاً بسلطان القلوب هذا؟ هل هذا السلطان مستريح في مجلسه من القلوب؟ هل قلوبنا مفتوحة له على الدوام؟ أنلاحظه في قيامنا وقعودنا، في أكلنا وشربنا؟ أنلاحظ محمداً ﷺ بقلوبنا في جميع حركاتنا وسكناتنا؟ أنسير في جميع شؤون حياتنا على الخط الذي رسمه لنا؟ فإن كان جوابنا بالإيجاب فما أسعدنا! لأن هذا يعني أن خيالنا وأحلامنــا مزيّنــة بجمال صورته.. وإننا بذلك نكون جماعة محمدية، نتخلق بأخلاقــه ونتــأدب بآدابه.. وإن أيّ جماعة تتزين بمثل زينة أخلاقه، تكون عنصر توازن في هــذا العالم. وأنا أعتقد أن هناك سبباً واحداً فقط في عدم وصولنا إلى مثــل هــذا التوازن، وهو أننا لم نرتق بعد إلى المستوى اللائق للروح المحمدية.

إنه الإنسان المصنوع على عين الله.. وإن مجرد مجيئه إلينا كإنسان يعد أكبر سعادة لنا، ذلك لأن الجنّات نفسها، والفردوس نفسه يتشرف بقدومـــه. وإن وصفه بما هو أهل له لهو من أكبر مهماتنا، وأشرف وظائفنا؛ فالإنسانية لا تبلغ مرتبة الكمال الحقة إلا بعد أن تفهمه بحق، وتتبع خطاه. وقد عقدتُ نيتي على تنفيذ هذا، إلا أنني سبق وأن ذكرت بأنني لست فارس هذا الميدان، ولكن أملي الوحيد هو محاولة إفهامه وشرح آفاقه.. وكل ما أملكه في هذا الخصوص هـــو نيتي الخالصة.

كنت قد وضعت نفسي منه منذ مدة طويلة موضع "قطمير"، وأسرّي عن نفسي بهذا، غير أنني بدأت أفقد هذا الأمل بمرور الزمن. ثم تمنيت لـــو أنـــني خُلقت شعرة ببدنه، فأكون بهذا القرب من مثل هذا الشخص الـــذي كـــان مظهراً لمثل هذه الدرجة من اللطف الإلهي الخاص. ومرّ زمن عليّ وأنا في مثل هذه الأمنية، إلا أنني كلما ازددت معرفة به، تأكدت أكثر بأنني لست أهـــلاً لتحقق هذه الأمنية، لذا فقد انحصرتْ كل رغبتي وأملي في أن أكون فرداً مـــن أمته، ذلك لأنني آمل ألا يحرم الله تعالى فرداً من أمته من شفاعته، فيقول وهو يدخلني بينهم: «هم القوم لا يَشْقَى بهم جَليسُهم.»[1]

أجل، فقد عقدت نيتي على محاولة القيام بمعرفة هذه الذات السامية، فمـــا أسعدني إن استطعت قدح شرارة واحدة من حبه في قلب هذا الجيل! ولكن ما حيلتي، فمثلي في هذا مثل نملة نَوَتِ الحج، فهي تعلم أن أرجلها الـــضعيفة لا

---

(١) البخاري، الدعوات، ٦٦؛ مسلم، الذكر، ٢٥؛ الترمذي، الدعوات، ١٢٩؛ «المسند» للإمام أحمد ٢/٢٥٢-٢٥٣

تقوى على قطع تلك المسافة الطويلة، ولكنها مسرورة لكونها ستموت وهي في الطريق إلى الحج.. فكل أملي أن أموت في هذا الدرب.

إنه إنسان أبعاد أخرى غير هذه الأبعاد.. لذا، فإن الوظيفة الملقاة على عاتقنا هي تعيير أنفسنا حسب تردد موجات ذلك العالم. وعندما يتم هذا، يبدأ التخاطب الصريح، والتخاطب بالشفرات، وتصدر الأوامر من قِبله هو، إذ يتولّى القيادة والإدارة بنفسه. أما الجماعة التي يقودها، والمجتمع الذي يديره فمجتمع عميق المعاني، سامي الأغراض، تغبطه الملائكة، ويقصر عنه كل وصف وتعبير.

قد يبدو للبعض أن ما نقوله بعيد عن الموضوعية. وهذا أمر يؤسَف له، أيقال هذا، وكل يوم يَتلقّى بعض الشباب من ذوي الوجوه النيرة البشارات المعنوية من رسول الله ﷺ؟ وبعد قيام البعض بالاتصال به مباشرة دون أستار ولا حجب وفي عالم الشهادة نفسه؟

إنه بيننا على الدوام بروحه، وحسب بعضهم بجسده النوراني؛ فالإمام السيوطي يذكر أنه التقى رسول الله ﷺ، وتحدث معه مرات عديدة. أجل، إنه لم يمت بالمعنى الذي نفهمه من الموت، بل غيّر أبعاد الوجود فقط، فمن الخطأ النظر إلى وفاته وكأنها مثل وفاة أي شخص اعتيادي، ذلك لأن القرآن يذكر لنا ألا نقول عن الشهداء -وهم أقل بمرتبتين اثنتين عن الأنبياء- إنهم أموات. إذن، فكيف يجوز لنا أن نقول عنه إنه "ميت" بالمعنى الذي نفهمه عن الموت؟ أجل، لا يسعنا إلا أن نقول إنه انتقل إلى بُعد آخر، لذا فإن الأشخاص الذين استطاعت أنظارهم وأبصارهم الامتداد إلى هذه الأبعاد يستطيعون رؤيته ومشاهدته.

إن الذين استطاعوا الخلاص من سجن الجسم، ووصلوا إلى مرتبة حياة القلب والروح، يستطيعون عيش الماضي والمستقبل معاً وفي الوقت نفسه. إذن، فلِمَ لا يوجد سلطان الرسل في الآخرة وفي الدنيا وأمام الملائكة وأمام الأنبياء في الوقت نفسه وفي اللحظة نفسها؟ أجل، إنه يوجد وسيوجد، وسأجعل من كل ما ذكرتُه أساساً وقاعدة لِما سأذكره، لأن تعيين زاوية النظر إلى الأنبياء وإلى نبينا مهم جداً. فإن كان فهم الأولياء والأصفياء والأبرار والمقربين وحدسهم – دع عنك الأنبياء العظام– يحتاج إلى صفاء روحي وإلى نقاء قلبي خاص، فكيف يمكن فهم الأنبياء في هذا العالم المادي الغليظ الذي تكثر فيه الحجب والأستار؟ إذن، فلكي نفهمهم فإن علينا التوجه إليهم بكل استعداداتنا القلبية، ولطائفنا الروحية، وبكل دقة واهتمام وتركيز. فإن كان المطلوب فهم شخصية رسول الله ﷺ، فإن هذه الدقة والاهتمام والتركيز يجب أن يزداد أضعافاً مضاعفة، هذا علماً بأن درجة معرفة كلٍّ منا وفهمه يتبع درجة قوة نظرته القلبية، ولكن لا أحد يستطيع أن يفهمه ككل أو يحيط به إحاطة تامة، فهو كما قال البوصيري:

وكيف يُدرِك حقيقتَه قومٌ نيامٌ تَسلّوْا عنه بالحُلُم

القسم الأول

الأنبياء والرسل

الباب الأول:

الغاية من إرسال الأنبياء

إن الأنبياء والرسل رغم وجود فروق بينهم من ناحية المراتب والدرجات إلا أنهم يشتركون في شيء واحد وهو أنهم أناس مختارون مصطفون تجلت عليهم ذات الله ﷻ وربّاهم وأدبهم وفضلهم على العالمين، وجعل قلوبهم مقتصرة عليه لا تحوم حول أحد غيره.

ومثل جميع الأنبياء والمرسلين اقتصر نظر نبينا ﷺ -وبدرجة أكبر- على ربه ﷻ فلم ير شيئاً غيره، ولم يستطع أحد دون الله أن يستميل نظره إليه وأن يصرف وجهه إليه أو يحوّل نظره عنه، فهو منذ فتح عينيه على الدنيا رأى ربه، وعندما أغمض عينيه الإغماضة الأخيرة قال: «اللّهم الرفيق الأعلى....»

لنسمع هذا من أمنا عائشة رضي الله عنها:

إن النبي ﷺ كان ينفُث على نفسه في مرضه الذي قُبض فيه بالمعوِّذات، فلما ثقل كنت أنا أنفث عليه بهنّ فأمسح بيد نفسه لبركتها. فلما مرض رسول الله ﷺ وثقل أخذت بيده لأصنع به نحو ما كان يصنع فانتزع يده من يدي ثم قال: «اللّهم اغفر لي واجعلني مع الرفيق الأعلى.»[1]

---

(١) البخاري، المغازي، ٨٣، المرضى، ١٩؛ مسلم، السلام، ٤٦؛ أبو داود، الطب، ١٩؛ الترمذي، الدعوات، ٧٦

فمن الواضح أن رسول الله ﷺ كان لا يرغب بالرفيق الدنيوي بل بالرفيق الحقيقي، وهو ربه، وكان يرغب في الوصول إليه في بُعد آخـــر. إذن، فمـــا السبب في مجيء هؤلاء الأنبياء والمرسلين -ولاسيما رسولنا ﷺ- إلى الدنيا وهم الذين عاشوا من لحظة مجيئهم إلى الدنيا حتى وداعهم وفراقهم لها هذا الطـــراز من العيش؟ ولتحقيق أي غاية وهدف أرسلوا؟ إن فحص وتحليل هذا الموضوع مهم جداً وذلك لسببين رئيسين:

الأول: لكي يتم فهم ومعرفة مدى سمو مرتبة النبوة وتجنّب الظـــن بـــأنهم كانوا أناساً عاديين، وتهيئة الرد على من يظن ذلك.

الثاني: الإشارة إلى الطريق الواجب سلوكها للذين يمثلون وظيفة الأنبيـــاء وإلى النظام الذي يجب أن يتبعوه في هذا الموضوع.

ولا يفقد هذا الموضوع أهميته مهما تغيرت زاوية النظر إلى هذه المسألة، لذا فسنقوم بإيراد رأينا في هذا الموضوع بشكل نقاط لم نرتبها حسب أهميتها.

أ. العبودية

تلتقي الغاية التي من أجلها أرسل الأنبياء والرسل مع غاية خلق الإنسان، ألا وهي العبودية لله ﷻ، والقرآن الكريم يشير إلى هذه الغاية فيقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونَ﴾ (الذاريات: ٥٦).

إذن، فإن الغاية الأساسية من خلقنا والهدف الرئيسي له هو معرفة الله ﷻ وإيفاء وظيفة العبودية له بشكلها الصحيح واللائق. وليس اقتناء الأموال والأملاك والقصور، أو الأكل والشرب والتمتع بلذائذ الدنيا. صحيح أن هذه الأمور حاجات فطرية إلا أنها لا تشكل غاية لخلقنا.

وما جاء الأنبياء والرسل إلا لكي يَدلّونا على هذه الغاية ويرشدوا إلى هذا الطريق. والقرآن الكريم يشير إلى هذا فيقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥).

ويقول في آية أخرى: ﴿وَلَقَد بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَنْ هَدَى اللّٰهُ وَمِنْهُم مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (النحل: ٣٦). وهذه الآية تشير بوضوح إلى أن سبب إرسال الرسل هو تجنب عبادة الأصنام والأوثان، وإرشاد الناس إلى عبادة الله تعالى، وجعل أنفسهم قدوة حسنة ومثلاً يُحتذى في هذا الأمر.

أما وضع رسولنا ﷺ فمختلف، فهو إضافة إلى كونه مرسلاً رحمة للعالمين إلا أنه كان مكلّفا في الوقت نفسه بدعوة الإنس والجن إلى عبودية الله تعالى، إذ

يروى عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بتُّ الليلة أقرأ على الجن ربُعاً بالحَجُون[1].»[2]

وبعد أن بلّغ الرسول ﷺ رسالته إلى الإنس والجن علم أن مهمته في الحياة قد انتهت وأنه آن الأوان إلى أن يرجع إلى الرفيق الأعلى؛ لذا، نجده يقول في آخر خطبة له يقول: "إن عبدا خيره الله بين أن يختار من زهرة الدنيا ما يشاء أو أن يختار ما عند الله فاختار ما عند الله." فذلك العبد المخير هو رسول الله ﷺ.[3]

---

(١) الحَجُون: اسم موضع في مكة المكرمة. (المترجم)

(٢) «المسند» للإمام أحمد ١/٤٤٩؛ «جامع البيان» للطبري ٣٣/٢٤

(٣) البخاري، مناقب الأنصار، ٤٥؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٢

ب. التبليغ

الغاية الأخرى من إرسال الأنبياء والمرسلين هو القيام بالتبليغ الديني. فلو لم يأتوا لما عرفنا المسائل المتعلقة بالعبادة، ولما وصلتنا الأوامر والنواهي ولما عرفنا واجباتنا وما فُرض علينا. أي لما عرفنا معنى الصلاة والصيام والزكاة والحج. ولما عرفنا أبداً موقفنا من المحرمات كالخمر والميسر والزنا والاحتكار والربا. فنحن لم نعرف هذه الأمور وأشباهها إلا بوساطة الأنبياء، ونحن نسمي هذا الأمر بإيجاز "وظيفة الرسالة" حيث جاء الرسل والأنبياء جميعاً بالرسالة نفسها مع اختلاف في الفروع والتفاصيل وبلّغوا الشيء نفسه في الأمور الأساسية.[1]

ويوضح القرآن الكريم الغاية العامة للأنبياء والرسل والوظيفة العامة لهم فيقول: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً﴾ (الأحزاب: ٣٩).

إذن، فقد جاءوا لتحقيق هذه الغاية، وما كان يهمهم أبداً ولا يؤثر فيهم أبداً نوع العقبات المنتصبة أمامهم ولا الأشخاص الواقفون تجاههم، إذ ما كانوا يعرفون الخوف، فخوفهم وخشيتهم كانت من الله تعالى وحده.

وفي هذا المجال يخاطب الوحي رسولنا ﷺ فيقول:

---

(١) «الأنبياء إخوة لعَلاّت، أمهاتهم شتّى ودينهم واحد.» أي إن الأنبياء إخوة من ناحية الأب مع اختلاف أمهاتهم، أي إن الأنبياء يتفقون في أصل الدين وقاعدته وهي "التوحيد" ويختلفون في الفروع. (البخاري، الأنبياء، ٤٨؛ مسلم، الفضائل، ١٤٥)

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَل فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: ٦٧).

أي إنك إن قصّرت في وظيفتك التي هي وظيفة تبليغ الرسالة فإن هذا القصور لن يعدّ قصوراً متعلقاً بحياتك الشخصية والفردية، بل هو موضوع متعلق بالحياة الفردية والاجتماعية لكل الناس، ذلك لأن وظيفتك هي تنوير طريق الإنسانية كلها، فلو قصرت في إيفاء وظيفتك هذه حَقَّهَا لبقيتْ البشرية جمعاء في الظلام. وفي الحقيقة فإن الرسول الكريم كان على يقين بمدى أهمية رسالته، ولولا ذلك لما أُرسل بهذه المهمة ولما قُدّرت له هذه الوظيفة. بعد أن كُلّف رسول الله ﷺ بهذه المهمة المقدسة قضى حياته كلها في سبيل تبليغ الدين، فبدأ بطَرْق كل باب وبالبحث عمن يتوسم فيه قبول دعوته.

كان ردُّ فعلِ الجبهة المعارضة هو إبداء اللامبالاة وعدم الاهتمام والمقاطعة في بداية الأمر، ثم انقلب إلى الاستهزاء والسخرية، وفي المرحلة الأخيرة تحول إلى استعمال القوة والعنف وتطبيق صنوف التعذيب، إذ بدأوا بإلقاء الأشواك في طريقه، ووضع الروْث على رأسه عندما يقف للصلاة... الخ من ألوان الإهانة والتحقير. ولكن رسول الله ﷺ لم يهن و لم ييأس و لم تفتر عزيمته، ذلك لأن مهمته هذه كانت سبب مجيئه للدنيا وهدفاً لَهَا. فدعا الجميع -ومنهم أعداؤه الألداء- مرات عديدة وبلغهم الرسالة الإلهية. أجل، فمن يدري كم من مرة ذهب إلى أعداء الله وأعداء الدين مثل أبي جهل وأبي لهب وعرض عليهم الهدى والحق، فكان يتجول في الأسواق ويزور الناس في خيامهم خيمة خيمة لعله يكون وسيلة لهداية أحدهم... ولكن الأبواب كلها كانت توصَد في

وجهه، ومع ذلك يذهب ويطرق الأبواب نفسها ويكرر الكلام نفسه... وعندما قطع الأمل عن مكة ذهب إلى الطائف، وكانت مكان نزهة وبساتين، فقابله أهل الطائف -الذين أبطرهم النعم وأعماهم الترف- شر مقابلة وفاقوا في ذلك أهل مكة، فاجتمع صبيانهم وسفهاؤهم وأخذوا يقذفونه بالحجارة... أجل، قذفوا بالحجارة فخر العالمين ومن تستحي الملائكة من التطلع إلى وجهه الكريم، وطردوه من الطائف، وكان زيد بن حارثة -ابنه بالتبني آنذاك- معه، ومع أن زيداً حاول أن يحمي بجسده رسول الله من هذه الحجارة المنهمرة عليه، إلا أن الجسد المبارك لرسول الله أصابته الحجارة وأدْمته.

التجأ رسول الله ﷺ من هذا الوسط العدائي إلى ظل شجرة في بستان، وظهر جبريل الأمين أمامه قائلاً له إنه مستعد لأن يرفع جبلاً ويقلبه على رؤوس هؤلاء المتوحشين، ولكن رسول الله ﷺ لم يقبل ذلك مع أنه كان في غاية التأثر، ذلك لأنه في المستقبل البعيد قد يؤمن أحدهم، لذا قال لجبريل «لا.»

ثم فتح يديه ودعا ربه:

«اللّهم إليك أشكو ضَعْفَ قُوَّتي وَقِلّة حيلتي وهَواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستَضعفين وأنت ربي إلى من تَكِلني؟ إلى بعيد يَتجهّمني أم إلى عدوّ ملّكتَه أمري. إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أبالي، ولكن عافيتَك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقتْ له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بي غضبَك أو يحلّ عليّ سخطُك. لك العُتْبى حتى تَرضى ولا حول ولا قوة إلا بك.»

"فلما رآه ابنا ربيعة عُتبة وشيبة وما لقي تحركت له رحِمهما، فدعوا غلاماً

لهما نصرانيا يقال له عَدّاس وقالا له: خذ قطفاً من هذا العنب فضعه في هـــذا الطَبَق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه ففعل عدّاس ثم ذهب بـــه حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ثم قال له: كل. فلما وضع رسول الله ﷺ يده فيه قال: «بسم الله» ثم أكل، ثم نظر عدّاس في وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد. فقال له رسول الله ﷺ: «ومن أهل أيّ بـــلاد أنت يا عَدّاس، وما دينك؟» قال أنا نصراني وأنا رجل من أهل نينوى. فقـــال رسول الله ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى.» فقال له عدّاس: وما يُدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: «ذلك أخي كان نبياً وأنا نبيٌّ» فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ يقبّل رأسه ويديه وقدميه فقال ابنـــا ربيعـــة أحدهما لصاحبه: أمّا غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاء عداس قالا له، ويلك يا عدّاس مالك تقبّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا ســيدي مـــا في الأرض شيء خير من هذا. لقد أخبرني بأمرٍ ما يعلَمه إلا نبي." [1]

ولولا هذه الحادثة الأخيرة لعاد ﷺ محزوناً ومهموماً من الطائف... ليس لِـــما قاساه منهم، بل لأنه لم يُعطَ الفرصة لتبليغ دعوته لأيٍّ منهم، ولكنه الآن فرح، فقد أصبح سبباً في هداية عدّاس.

لقد كان ﷺ يمامة الأنبياء -إن صح التعبير- لا يفتر في البحث عن القلوب النقية المنفتحة على الحقيقة، وعن الوجوه المقبلة على الهداية، وعندما يجـــدها يتسرب إلى هذه القلوب ويهمس فيها إلهام روحـــه. وهكـــذا كلمـــا زادت

---

(١) البخاري، بدء الخلق، ٧؛ مسلم، الجهاد، ١١١؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ١٦٦/٣؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ٦٠/٢-٦٣

الحلقات والهالات حوله وتوسعت جُنّ جنون أصحاب الكفر والضلالة.

وكما جُنّ الكفر في الوقت الحالي أمام الصحوة الإسلامية في شـرق العـالم وغربه وأصبح يهذي، كان الكفر أيضاً قد جن وهو يرى حلقات الأتباع وهـي تزداد حول الرسول ﷺ.

وأدى هذا الجنون الذي أصاب الكفر إلى توهم أنهم يستطيعون إطفاء نور الله... ولكن هيهات... فمحاولاتهم تلك كانت أشبه بمن يحاول إطفاء نـور الشمس بأفواههم... والشمس هنا تأتي من باب التمثيل وإلا فإن النور الـذي أتى به كان يفوق نور الشموس، لأنه كان من نور الله ﷻ. والقرآن الكـريم يصور حالتهم المضحكة هذه فيقول: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِـأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٣٢).

وفي القرن العشرين... في أيامنا الحالية هذه انقدحت الشرارات في نفوسـنا من المشعل الذي أشعله نبينا ﷺ، فسارت مئات الآلاف في طريقه وهم يحملـون أرواحهم في أكفهم من أجله ومن أجل إعلاء دعوته. إذن، فـالله ﷻ شـاء أن تتجدد الآن تلك الهالة المحمدية، وأن تتكرر تلك السلسلة الذهبية، أما حقد الكفر وغيظه وشدته وحدّته ومكره وخديعته فلن تستطيع الوقوف أمامها أو إيقـاف سيرها... أجل، فإن هذه البذور التي زرعها الإخلاص ستنبت عاجلاً أم آجلاً... إن لم يكن اليوم فغداً؛ فالنور الذي نشره رسول الله ﷺ لن ينطفئ أبداً.

وعندما لم تعد مكة قادرة على إيوائه هاجر إلى المدينة لكي يستمر في نشر الهداية والنور هناك، ولكن كان عليه أن ينشغل مع اليهود والمنافقين هناك، وأن يقود الحرب ضد الكفار، وتنكسر سنّه في الحرب ويدمى وجهه وأن يجـوع

ويظمأ، حتى أنه كثيراً مّا كان يربط الحجر على بطنه من الجوع، وأن يستمر سائراً في دربه دون أي تراخ أو تباطؤ، فلم يتوقف أبداً عن إيفاء حق وظيفته في الدعوة، و لم يهمل لحظة واحدة مهمة التبليغ. فأوضح كل أمور الدين وشرح كل دقائقه وقام بمهمته في تبليغ دين الله أفضل قيام، و لم يهمل إرشاد الأفراد طوال إقامته في المدينة المنورة رغم كل مشاغله ونضاله مع الدول الأخرى؛ فعندما يأتيه أعرابي ويسأله عن مسألة شرَحَها قَبله مئات المرات لا يضيق به وبسؤاله، بل يشرحها له بكل سرور وبكل انشراح وبكل مودة.

والتبليغ يعني إرشاد الناس إلى الصراط المستقيم. والحقيقة أن التبليغ هو سر إرسال الأنبياء وإرسال سلطان الأنبياء. هذا الصراط المستقيم الذي يعرفه كل المؤمنين ويجب أن يعرفوه جيدا، فنحن ندعو الله أربعين مرة أو أكثر كل يوم أن يهدينا إلى الصراط الذي سلكه الأنبياء والصديقون والشهداء، وأن يبلغنا مرامنا ومرادنا مثلهم. والصراط المستقيم طريق عريض، ولكل واحد نصيبه المعلوم منه، ذلك لأن خاتم الرسل أرسل رحمة للعالمين كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

ثم إنه كان شاهدا ومبشرا ونذيرا كما تنص على ذلك الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ (الأحزاب: ٤٥).

إن رسولنا ﷺ تحمّل عبئاً كبيراً وثقيلاً مثل عبء النبوة ثلاثة وعشرين عاما، وقام بإيفاء حقّ وظيفته بنجاح منقطع النظير لم يتيسر لأي صاحب دعوة آخر... وبمثل هذا الروح وبهذه المشاعر المضطرمة بحب الله كان يتقدم ويقترب من الهدف المنشود ومن النهاية المباركة.

وحج حجة الوداع، إذ حج مرة واحدة، ولأنه جمع بين الحج والعمرة فإننا نسمي ذلك بـ"الحج الأكبر"[1] وفي هذا الحج ركب رسول الله ﷺ ناقته وبلّغ كل ما يجب تبليغه مرة أخرى... فمن قضايا القتل والفدية إلى حقوق المرأة... إلى قضايا الربا... إلى العلاقات بين الأقوام والقبائل... إلى سواها من الأمور والمواضيع... بلغ كل ذلك مرة أخرى وكان يتوجه كل مرة إلى الجماعة المؤمنة قائلاً: «ألا هل بلّغتُ؟» فكانت تردّ عليه: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فكان يشير بأصبعه إلى السماء وينكبها على الناس قائلاً: «اللّهم اشهد. اللّهم اشهد» ثلاث مرات.[2]

لقد أدّى مهمته بحقّ، وقام بالتبليغ على أفضل وجه، لذا فقد كان مستريح الضمير، مرتاح النفس، مطمئن القلب، وكان يتهيأ لملاقاة ربه... كان إنسان مراقبة للنفس مراقبة حساسة جدا، لذا فقد قضى حياته كلها في إطار هذه المراقبة الحساسة يسائل نفسه: هل استطعت أن أبلغ رسالتي كما يجب؟ وهل عشت لتحقيق الهدف الذي من أجله أرسلني الله تعالى إلى الناس؟

(١) الحج الأكبر: وهو القيام بأداء العمرة والحج معا. علما بأن هناك اعتقاداً خاطئاً شاع بين الناس حول الحج الأكبر مفاده أنه الحج الذي يصادف فيه يوم عرفة يوم الجمعة.

(٢) البخاري، الحج، ١٣٢، المغازي، ٧٧؛ مسلم، الحج، ١٤٧؛ ابن ماجه، المناسك، ٨٤؛ أبو داود، المناسك، ٥٦

ج . القدوة الحسنة

ومن الأسباب التي يمكن ذكرها لإرسال الله تعالى أنبياءه ورسله هو أن يكونوا أسوة حسنة وقدوة متبعة لأممهم. فالله تعالى يذكر في قرآنه الكريم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه﴾ (الأنعام: ٩٠). هذه الآية موجهة للرسول ﷺ توصيه بالاقتداء بالأنبياء الذين سبقوه بعد أن ذكرت أسماءهم واحداً تلو الآخر... فتأمل.

ثم إن القرآن الكريم يخاطبنا قائلاً: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب: ٢١).

فالأنبياء أسوة حسنة لنا وهم أئمتنا؛ فكما نتبع الإمام في الصلاة، نتبع سلوك الأنبياء في جميع تفاصيل الحياة ونقتدي بهم. ذلك لأن الحياة الحقيقية بالنسبة إلينا يمثلها نبينا ﷺ والأنبياء الآخرون. والصحابة الذين عاشوا عهد رسول الله ﷺ اقتدوا به حذو النعل بالنعل، لذا وصل هؤلاء الصحابة والتابعون لهم إلى هذه المترلة التي بينها رسول الله ﷺ في حديثه:

«يأتي على الناس زمان يغزو فئام من الناس. فيقال لهم: فيكم من رأى رسول الله ﷺ ؟ فيقولون: نعم، فيُفتَح لهم. ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم: فيكم من رأى من صَحِبَ رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم. ثم يغزو فئام من الناس. فيقال لهم: هل فيكم من رأى من صَحِب من صحب رسول

الله ﷺ؟ فيقولون: نعـــم، فيفتح لهـــم.»[1]

ويقول النبي ﷺ في حديث آخر: «خير الناس قَرْني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم.»[2]

فيشير إلى فضل القرون القريبة منه، ذلك لأن أهل هذه القرون كانوا يبدون حساسية شديدة في اتباع سنن الرسول ﷺ في كل شيء: في حياتهم ومشاعرهم وأفكارهم. وفي الحقيقة كان من المهمّ أن يكون التـــشبه برســـول الله ﷺ - المبعوث من قبل الله أسوة حسنة- غاية وهدفاً... وتحقق هذا فعلاً.

أجل، لقد أبدى الصحابة والتابعون وتابعو التابعين حساسية شديدة في هذا الموضوع، لذا كانوا أفضل من الناس الذين عاشوا في القرون الأخرى، وكـــان النبي عيسى عليه السلام يقصد أمة نبينا ﷺ عندما قال: [في يدهم أعلام القدِّيـــسين] (التثنية - الباب: ٣٣، الآية: ٣) وهذا تبجيل كبير. وهناك حديث ضعيف يقول: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل.»[3] وهذا مما يدل على فضل هـــذه الأمـــة المحمدية.

أجل، فقد وصلوا باتباعهم النبي ﷺ إلى الحد الذي لا يوجد وراءه ســـوى النبوة. وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يمثل أنموذجاً مدهشاً لهذا النوع من الرجال الذين اتخذوا من الرسول ﷺ مُرشداً لهم في جميع أمور حيـــاتهم ودقائقهـــا، وزيّنـــوا وعطّروا حياتهم بهذه القدوة المباركة. ولم يتغير نظام حياته قيد شعرة بعـــدما

---

(١) البخاري، فضائل اصحاب النبي، ١؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٢٠٨-٢٠٩

(٢) البخاري، فضائل اصحاب النبي، ١؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٢١٢

(٣) «كشف الخفاء» للعجلوني ٢/٦٤؛ «الفوائد المجموعة» للشوكاني ص٢٨٦

دالت له الدول وانفتحت أمامه أبواب بيزنطية ودانت له الشعوب والأمم؛ أما القُدس الحزينة الأسيرة اليوم... اللطخة السوداء على جبين العالم الإسلامي... هذه البلدة الطيبة التي فتحت في عهده لم يرض قساوستها ورهبانها تسليم مفاتيحها على الرغم من انتصار المسلمين وفتحهم لها قائلين: "لا نرى فيكم أوصاف الشخص الذي يجب أن يتسلم هذه المفاتيح..." وعندما أخبر بذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب سافر إلى القُدس على ناقة استعارها من بيت المال متناوبا ركوبها مع خادمه حتى وصلا المدينة.

ولننظر هنا إلى تجلي عظمة القدر حيث يتوافق دخول الخليفة المدينة وهو يقود الدابة لخادمه؛ إذ كانت نوبة الركوب له، فترل الخليفة عن الناقة ولم يلتفت إلى إصرار الخادم، فأركبه الناقة وأمسك بمقودها يقودها وهو يدخل إلى المدينة.

ولكم أن تتصوروا أنتم حال من يرى هذا المنظر الفريد... لقد بهتهم هذا المنظر، وأذهلهم حتى تسمّروا في أماكنهم لا يصدقون ما تراه أعينهم، وقالوا: "أجل، هذه هي صفات الشخص المذكور في كتبنا" وسلموا له مفاتيح المدينة.

ثم تأملوا حاله وهو مسجًّى على الأرض بعد أن طعنه ذلك المجوسي. وأثر ما أكله من طعام أو شراب يخرج من جرحه. كان صامتاً لا يبدر منه صوت ولا يهتم بما يدور حوله، وها هو خادمه يأتيه ويسأله إن كان يريد طعاما أو شرابا فلا يجيبه وإنما يشير بعينيه أن "لا". ويروي المِسْوَر بن مَخْرَمَة قائلاً: دخلت على عمر بن الخطاب وهو مسجى فقلت: كيف ترونه. قالوا: كما

ترى. قلت: أيقظوه بالصلاة فإنكم لن توقظوه لشيء أفزع[1] له من الصلاة. فقالوا: الصلاة يا أمير المؤمنين. فقال "ها الله ولا حقّ في الإسلام لمن ترك الصلاة." فصلى وإن جرحه لَيَثْعَب[2] دما.[3]

هكذا كان عمر ﷺ... هكذا كان لأنه تعلم ذلك من سيده وحبيبه ورسوله، لذا يجب أن يتبعه ويقتدي به بهذا الشكل كي يكون أسوة حسنة لمن يأتي بعده.

أجل، فإرسال الرسل والأنبياء ليكونوا قدوة وأسوة حسنة لأممهم من أسمى غاياتهم.

---

(١) أي أشد إيقاظا له منها. (المترجم)

(٢) يثعب: أي يجري. (المترجم)

(٣) «مجمع الزوائد» للهيثمي ١/٢٩٥؛ «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٣/٣٥٠

د. تأمين التوازن بين الدنيا والآخرة

أتى الأنبياء والرسل لتأمين التوازن بين الدنيا والآخرة. فبمقياس التوازن الذي جاءوا به يستطيع ابن آدم أن يجد طريقه المستقيم ومنهاجه الصحيح ويتخلص من الإفراط والتفريط.

أجل، فلا يجب ترك الدنيا والاعتكاف في الأديرة والصوامع كالرهبان. ولا يجب الانغماس في الدنيا والانقلاب إلى عبد لها وأسير في يدها، بل الأفضل العثور على الطريق الوسط، ولا يمكن ذلك إلا بوساطة الوحي؛ فالعقل والوجدان لا يستطيعان إنشاء مثل هذا التوازن؛ والعلم الصرف أبعد منهما عن الوصول إلى هذا الهدف وتحقيق هذه الغاية، إذ لا يستطيع رفع الإنسان إلى هذا المستوى.

والقرآن الكريم يشرح هذا التوازن فيقول: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٧٧).

فإذا وضعتَ في إحدى كفتي هذا الميزان الإلهي الحقائق التي تنطق بها الآية الكريمة: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: ١١) عليك أن تضع التحذير الذي تتضمنه الآية ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر: ٨).

وهكذا يتم حفظ التوازن بهذه المقاييس والموازين. أما إنفاق أبي بكر الصديق ﷺ كل ماله في سبيل الله وعدم إبقائه لأهله شيئاً فما ذلك إلا لأن مرتبة "الصدّيقية" تستلزم هذا.

يروي زيد بن الأرقم الحادثة التالية عن أبي بكر ﷺ في أيام خلافته فيقول: إن أبا بكر ﷺ استسقى فأُتِيَ بإناء فيه ماء وعسل، فلما أدناه من فيه بكى وأبكى من حوله، فسكت وما سكتوا، ثم عاد فبكى حتى ظنوا أن لا يقدروا على مساءلته، ثم مسح وجهه وأفاق فقالوا: ما هاجك على هذا البكاء؟ قال: كنت مع النبي ﷺ، وجعل يدفع عنه شيئاً ويقول: «إليك عني... إليك عني...» و لم أر معه أحداً فقلت: "يا رسول الله! أراك تدفع عنك شيئاً ولا أرى معك أحداً؟" قال: «هذه الدنيا تمثلت لي بما فيها، فقلت لها إليك عني فتنحّتْ وقالت: أما والله لئن انفلتَّ مني لا ينفلتُ مني مَن بعدك.» فخشيت أن تكون قد لحقتني فذاك الذي أبكاني.[1]

أجل، فمع أن الدنيا أقبلت عليهم فإنهم عاشوا حياة متوازنة، ذلك لأن قدوتهم وأسوتهم ومرشدهم عاش كذلك.

(١) «حلية الأولياء» لأبي نعيم ١/٣٠-٣١

هـ. سد باب المعذرة

من أسباب إرسال الرسل والأنبياء هو سد باب معذرة الناس أمام الله ﷻ يوم القيامة. قال الله تعالى موضحا هذه الغاية ومبينا هذا السبب: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ (النساء: ١٦٥).

لم يستطع القادة والزعماء -عدا الأنبياء والرسل- المداومة على إقناع الأمم والشعوب إقناعاً مستمراً. إنهم قد يفعلون ذلك لمدة وقد ينجحون، ولكن نجاحهم هذا نجاح مؤقت؛ إذ سرعان ما يتجاوزهم الزمن ويبلي أفكارهم فتسقط كما تسقط أوراق الخريف. ذلك لأن دعوتهم غير مستندة إلى العون الإلهي. لذا، فهم لم يستطيعوا أن يتخطوا الصفة البشرية قولا وفعلا.

أما الأنبياء والرسل فهم بخلاف ذلك. إنهم أشخاص معدّون سلفاً ومختارون للنبوة والرسالة وهم في أرحام أمهاتهم. فحياتهم حياة متناغمة تناغم لحن موسيقي، وحديثهم حديث عذب عذوبة الشعر، فعندما يتحدثون ينصت الوجود كله لهم، ويرهف الجميع أسماعهم لهم، فكم من أمر تغير بمجيئهم، وكم من حادثة حولت طريق سيرها بقدومهم، وكم من قلب أسلم قياده لهم واتبعهم، وكم من ناموس جار في الكون وقف من أجلهم بل غير مجراه من أجلهم ونتيجة طلبهم.

ويكفينا في هذا أن نوجه النظر إلى سلطان الأنبياء وسيد المرسلين محمد ﷺ؛

فالأرض والشجر والحيوان توجه إليه وكأن كلاً منهم يرغب في أن يقيم علاقة معه باسم النوع الذي ينتسب إليه وأن يظهر تصديقه بنبوته وبرسالته، وكما قال البوصيري: "جاءت لدعوته الأشجار ساجدة".[١]

ذلك لأن الأشياء اكتسبت معانيها بعد قدومه هو، وتخلص الوجود كله من ركام الفوضى. كان يقول بلسان القرآن ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء: ٤٤). يقول هذا وكأنه ينفخ الحياة والروح في كل موجود. كل ما تعلمناه تعلمناه منه، وما بانت حكم الأشياء إلا به،[٢] ويجدر بنا أن نورد في هذا الصدد أن الإنسان لم يخلق عبثاً و لم يترك سدى.[٣]

لقد جاء كل نبي ورسول بمعجزات عديدة ليزداد الذين آمنوا إيماناً، ولا يبقى لغير المؤمنين أي عذر لهم في عدم الإيمان. أما سيد المرسلين فقد أتى بجميع

---

(١) انظر إلى: مسلم، الزهد، ٧٤؛ «المسند» للإمام أحمد ٢٢٣/١؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ١٣٥/٦

(٢) انظر إلى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٩)، ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٥١)، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤)، ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُم يَتْلُو عَلَيْهِم آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة: ٢). وانظر إلى: «المسند» للإمام أحمد ٢٠٢/١ (الحديث الذي جرى بين جعفر بن أبي طالب والنجاشي).

(٣) الآيات التالية تشرح هذا الأمر بوضوح: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (القيامة: ٣٦)، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُم عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٥)

معجزات الأنبياء والمرسلين السابقين له. أجل، فقد رأت كل أمة معجـزات نبيها أو سمعت بها، أما نحن فقد سمعنا آلافاً من معجزات نبينا، ونرى بين أيدينا في كل حين معجزة خالدة وهي القرآن الكريم؛ ومن ثم فلا عذر لأي شخص، ولا مجال لأي اعتراض لأن الله ﷻ قد أوضح بوساطة نبيه جميع الحقائق الـتي تعود إلى الإيمان إيضاحاً كاملاً وعرضها أمام الأنظار بكل جلاء، ويعد هـذا الأمر أحد أسباب بعث الأنبياء والرسل؛ لأن الله تعالى قرر في القـرآن هـذه القاعدة حيث يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء: ١٥).

فإذا ما نصبت موازين الحساب يوم القيامة فلا عذر لأحد ولا حجة لكائن من كان؛ فقد أرسلت الرسل وبعثت الأنبياء.[1]

---

(١) انظر: ﴿وسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُم رُسُلٌ مِنكُم يَتْلُونَ عَلَيكُم آياتِ رَبِّكُم وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (الزمر: ٧١)

الباب الثاني:

خصائص الأنبياء

أ. الربانية

ما قام أي نبي أو رسول بدعوته نتيجة تفكيره الذاتي أو قناعته بفلسفة خاصة أو نظام معين رآه صالحاً... لم يقم بهذا أي نبي ولا يمكن أن يقوم. فالله ﷻ يختار شخصاً معيّناً من بين الناس ليجعله رسولاً... وعندما يحين الوقت المناسب يكلف الله تعالى هذا الشخص المصطفى بمهمة الرسالة، ويبلغه بأداء وظيفة النبوة، فيقوم هذا الشخص بإعلان نبوته. نعم.. يأتي كل نبي بالوحي... ويعيش بالوحي... ويموت بعد انقطاع الوحي؛ فالوحي بالنسبة لهم شيء أساسي كالهواء والماء والخبز بالنسبة إلينا... فنسيم "الأنس الإلهي" غذاء أرواحهم، ومن الفيوض القدسية تهبّ عليهم نسائم مثل ريح الصبا؛ وهم يتحمّلون البقاء بين الناس ما دامت هبوب تلك النسمات، فإذا ما انقطعت طاروا بأجنحة الشوق إلى ربهم وبارئهم، أو انتظروا الرحيل إلى ذلك العالم المضيء؛ فهم أناس سلّموا أنفسهم لله، فلا يتحدثون من أنفسهم أبداً بل ينطقون فقط بما أراده الله منهم وبالأسلوب والكيفية التي أرادها الله تعالى. والدين الذي أتوا به هو الدين الذي وضعه الله تعالى، ودورهم قاصر على الاضطلاع بتبليغ رسالة الربانيين والقيام بوظائفهم.

وعند دعوتهم الناسَ لا يكلفون هدايتهم، فسواء آمن الناس بهم أم لم يؤمنوا

فليس هذا من اختصاصهم؛ لأن وظيفتهم هي التبليغ المبين، وهم في أدائهم لهذه الوظيفة لا يعبؤون بما يقوله أو يفعله أعداؤهم ومعارضوهم. ولا تجدهم عند قيامهم بهذه الوظيفة يتنازلون عن أدنى شيء في دعوتهم مهما كان المقابل «لو وَضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أَترك هذا الأمر ما تركتُه أوْ أهلِك دونه.»[1]

(1) انظر إلى «السيرة النبوية» لابن هشام ٢٨٥/١

ب. التجرد والتوجه إلى الله وحده

عند قيام الأنبياء والمرسلين بمهمتهم لا ينتظرون أي أجر أو مقابل، مادياً كان أم معنوياً. فشعارهم الموحد كما بينه القرآن في آيات عديدة وفي مناسبات مختلفة على لسان معظم الأنبياء والرسل ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ﴾ (يونس: ٧٢ وهود: ٢٩). إننا قد ننتظر أجراً معنوياً إن لم ننتظر الأجر المادي. أما هذا الأمر غير وارد مطلقاً مع الأنبياء، فهم لا ينتظرون أجراً من أحد، إذ إن ما يفعلونه يكون لأنه أمر من الله تعالى. ولو فرضنا المستحيل وقلنا بأنهم عرفوا أن مصيرهم سيكون الاصطلاء بلهيب جهنم لما ترددوا أبداً عن أداء مهمتهم لحظة واحدة، ولما انحرفوا عن غايتهم قيد شعرة.

إن الأنبياء والرسل أشخاص في الذروة، مستعدون للتضحية بكل مشاعرهم المادية والمعنوية في سبيل دعوتهم، فليس حب الجنة ونعيمها وخشية النار وجحيمها هما الحادي لهم لتنفيذ هذه المهمة الشاقة والقيام بهذه الوظيفة الصعبة؛ بل إن الحصول على رضا الله تعالى وحسن قبوله هو أسمى غاية لهم.

أجل، إن جميع أعمال الأنبياء خالصة لله ﷻ، ويبلغ هذا الأمر عند رسولنا ﷺ مبلغ الذروة. ففي الدنيا قال «أمتي» وعند المحشر يوم القيامة يقول: «أمتي!.. أمتي!...»[1] فتأملوا درجة إخلاصه أن أبواب الجنة مفتحة له على مصراعيها تنتظر تشريفه لها، غير أنه منشغل الفكر بمصير أمته يبتغي أن يوصلها

---

(١) البخاري، التوحيد، ٣٢؛ مسلم، الإيمان، ٣٢٦

إلى الجنة، من أجل ذلك يرجح البقاء في جو ذلك المحشر الرهيب على التنعم بنعيم الجنة. وهو لا يفعل هذا لأصهاره ولأقربائه فقط، بل لأمته جميعاً حتى المجرمين منها.

أجل، إن منافذ أرواحهم منفتحة على غاية واحدة لا غير، هي الحصول على رضا الله تعالى، ومغلقة أمام جميع المنافذ والأبواب الأخرى.

إن الذين يقومون بمهمة التبليغ والدعوة اليوم -وهي مهمة الأنبياء والمرسلين كما قلنا- يجب أن ينتبهوا لهذا الأمر ويكونوا شديدي الحساسية تجاهه، فهو في غاية الأهمية وشديد الخطورة. فتأثير الكلام والخطاب لا يرتبط بمدى بلاغته وفصاحته بل بمقدار ما يتضمنه من إخلاص وتجرد.

والقرآن الكريم يشير إلى هذا فيقول: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (يس: ٢١).

أجل، اتبعوا الأنبياء الذين يحلقون في سماء التجرد والهداية؛ لأنهم لا يطلبون منكم أجراً دنيوياً. وفكّروا مليا قبل أن تسيروا وراء أي شخص، فالشخص الذي تسيرون وراءه وتتبعون خطاه يجب أن يكون متجرداً لله، وأن يكون حب العمل في سبيل الله شاغله ليلا ونهارا لا يلتفت إلى زخرف الدنيا، بل يصب همه في تهيئة طرق النصر للأجيال القادمة. فلا يكون لحب الدنيا وزينتها أي ظل على قلبه المنطوي على التجرد لله... ومن ثم فلتفتشوا لزعامتكم وقيادتكم عن مثل هذا الشخص ولتسيروا وراءه.

لقد كان رسول الله ﷺ شخصاً متجرداً لله، لم يشبع حتى من خبز الشعير،

وربما تمر أيام وأسابيع بل شهور فلا توقد في بيته نار لطبخ طعـــام أو عمـــل حساء.[1]

يروي أبو هريرة ﷺ: دخلت على النبي ﷺ وهو يصلي جالساً، فقلت: يا رسول الله أراك تصلي جالساً فما أصابك؟ قال: «الجوع.» فبكيت، فقال: «لا تبكِ يا أبا هريرة، فإن شدة الحساب يوم القيامة لا تُصيب الجائع إذا احتسب في دار الدنيا.»[2]

وتروي أمنا عائشة رضي الله عنها فتقول:

دخلتْ عليّ امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله عباءة مثنية، فانطلقتْ فبعثتْ إليّ بفراش حَشْوُه الصوف، فدخل عليّ رسول الله فقال: «ما هـــذا يـــا عائشة؟» قالت: قلت: يا رسول الله فلانة الأنصارية دخلتْ عليّ فرأت فراشك فذهبت فبعثت إليّ بهذا فقال: «رُدّيه.» قالت: فلمْ أَرُدّه وأعجبني أن يكـــون في بيتي حتى قال ذلك ثلاث مرات. قالت: فقال: «رُدّيه يا عائشة فوالله لو شـــئتُ لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة.»[3]

أجل، فلو أراد الرسول ﷺ لعاش حياة لينة ومرفهة ولكنه لم يرد ذلك.

يروي أبو هريرة ﷺ: جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملك ينـــزل فقال جبريل هذا الملك ما نزل منذ خلق قبل الساعة. فلما نزل قال: "يا

(١) البخاري، الرقاق، ١٧؛ مسلم، الزهد، ٢٨

(٢) «كنـــز العمال» للهندي ١٩٩/٧

(٣) «البداية والنهاية» لابن كثير ٦٠/٦

محمدا أرسلني إليك ربك أفملكاً نبيّاً أجعلك أوْ عبداً رسولاً؟" قال جبريل: "تواضعْ لربك يا محمد" قال: «بل عبداً رسولاً.»[1] فما رُئيَ رسول الله ﷺ أكل متكئاً حتى لحق بربه. وعن أبي أُمامة قال: كانت امرأة تُرافث الرجال وكانت بذيئة فمرت بالنبي ﷺ وهو يأكل ثريداً على طربال فقالت انظروا إليه يجلس كما يجلس العبد ويأكل كما يأكل العبد فقال النبي ﷺ: «وأيُّ عبد أعبد مني؟»[2]

إن صفحات حياة الرسول ﷺ مملوءة بأمثلة التجرد لله، ومن أراد الاطلاع على هذه الأمثلة وتفاصيلها فهناك مئات من الكتب حولها. أجل، لقد عاش جميع الأنبياء -وفي مقدمتهم رسول الله ﷺ- حياة تجرد ووهبوا أنفسهم لله، ولم يطلبوا مقابل خدماتهم التي أدّوها أي أجر دنيوي أو أخروي؛ وهذا هو السر الذي يكمن وراء قابلية الإقناع عندهم وقابلية التأثير. إن من يرغب أن يكون لكلامه تأثير ومفعول كمفعول إكسير الحياة فعليه ألا يطلب أو ينتظر أجرا مقابل الخدمات التي يؤديها.

(١) «المسند» للإمام أحمد ٢٣١/٢؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ١٨/٩-١٩

(٢) «مجمع الزوائد» للهيثمي ٢١/٩

ج. الإخلاص

معنى الإخلاص هو أن يكون كل ما تعمله أو تتركه من عمل في سبيل الله. والأنبياء أشخاص وصلوا إلى مرتبة الإخلاص منذ بداية مهمتهم. نعم إن الأشخاص العاديين يمكنهم أن يصلوا إلى درجة معيَّنة من مرتبة الإخلاص إن هم بذلوا جهدهم، إلا أن النهاية التي يصلونها هي درجة البداية عند الأنبياء. فكأنهم هم لب الإخلاص وجوهره... لذا، فهم من مرتبة "المخلَصين". ويشير القرآن الكريم إلى هذه الدرجة من الإخلاص في الأنبياء ويذكر أسماء بعضهم كنماذج لهذه المرتبة السامية: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾ (مريم: ٥١). ويقول عن يوسف عليه السلام: ﴿...إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف: ٢٤). ويخاطب أمة رسول الله في شخص رسول الله فيقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ (الزمر: ٢). ويطلب منه أن يذكر ويقول: ﴿قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ (الزمر: ١٤).

وسبب العبودية راجع لأمر الله تعالى، ونتيجتها رضا الله وثمرتها في الآخرة. وهذه العبودية تحتضن الحياة بأكملها ويبدو تأثيرها ومفعولها في جميع تصرفات العبد وسلوكه.

يقول مفكر العصر وهو يعرِّف الإخلاص ويبين أهميته:

"فيا نفسي!! إن كنت تأبين أن تكوني مثل الأحمق الأبله، فأعطي باسم الله... وخذي باسم الله... وابدئي باسم الله... واعملي باسم الله...

والسلام."[1] والإخلاص هو عنوان الإنسان المستقيم، فالمخلص لا يعرف الطرق الملتوية؛ لأن حياته المعنوية والروحية حياة مستقيمة وهي في ارتقاء دائما نحو السمو؛ ومن ثم فهؤلاء يحافظون على طهارة الإخلاص الذي بدأوا به حياتهم... ولكن ما أقل أمثال هؤلاء!

هناك شخصية فريدة فقط في تاريخ الإنسانية وصلت إلى سامق قمة الإخلاص وإلى شاهق ذروتها، وإلى الأفق الذي لا أفق بعده... وهو سيدنا رسول الله ﷺ... كيف لا؟ وهو الذي لا تجد فرق قيد شعرة بين إخلاصه وتواضعه في أول يوم لبدء دعوته وإخلاصه وتواضعه وهو يدخل مكة فاتحاً.

لقد تم فتح مكة صلحا، هذا إذا استثنينا بعض الحوادث المنفردة التي لا يصح تشميلها. وعندما دخل فخر الكائنات إلى تلك المدينة المباركة التي أخرج منها قبل سنوات، لم يدخلها بصورة القائد الفاتح الظافر، بل دخلها وقد حنى رأسه حتى كاد يلامس ظهر بغلته.[2]

وفي المدينة لم يغير سلوكه قط. فها هم الصحابة كانوا يقومون أجلالاً له عند دخوله عليهم... كان يجب أن يقوموا... بل لو مرّ على ميت لكان عليه أن يهبّ من رقدته ويقف أجلالاً له؛ فقد كان أهلاً لكل احترام وتوقير وتبجيل، ولكنه لم يكن يرضى لصحابته القيام إذ يضيق صدره فيقول لهم منبّهاً:

---

(١) «الكلمات» لبديع الزمان سعيد النورسي ص٨؛ «اللمعات» لبديع الزمان سعيد النورسي ص٢٤٢

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام ٤/٤٧-٤٨؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ١٦٩/٦

«لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظِّمُ بعضها بعضاً.»[1]

أجل، فلقد أتم مهمته المقدسة بنفس السلوك الذي بدأ به؛ إذ مرت سنوات حياته مثل لحن متناغم، فما كان يبدأ بعمل شيء إلا أتمه، وقد كان هذا نجاحاً منقطع النظير... ويمكن القول أنه بدأ اللحن الإلهي بعزف الطبقات الهادئة من الموسيقى التي سرعان ما تصاعدت حتى تزلزلت منها الأرض والسماء.

لقد نذر حياته كلها ونفسه في عبودية خالصة لله... حتى فاضت نفسه بمعرفته... لقد سرح ناظريه في آثار خلقه وعظمته فامتلأت روحه باللذائذ المعنوية حتى أترعت.. فصحا على الحقيقة وفتح أشرعة قلبه نحو الحق، و لم يفتُر أبداً عن ذكر الله... ذلك لأنه كان رجل إخلاص وتجرد، وكان شعور الإحسان عنده يُضيف له بُعداً آخر، فقد عرّفه ﷺ بقوله: «أن تَعْبد اللهَ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.»[2]

(١) أبو داود، الأدب، ١٥٢؛ «المسند» للإمام أحمد ٢٥٣/٥

(٢) البخاري، الإيمان، ٣٧؛ مسلم، الإيمان، ٥، ٧

د. الموعظة الحسنة

لم يدخل الأنبياء في المراء أبدا أثناء قيامهم بمهمتهم في التبليغ والدعوة، بل كانوا يقتربون من الناس بالحكمة والموعظة الحسنة. والقرآن الكريم يوجه الرسول ﷺ قائلاً له: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥). أي اشرح حِكَم الأشياء وأسرار الخلق بشكل هين لين، وبأسلوب مقنع دون أن تمس مشاعرهم بأذى، محاولا إشباع عقولهم.

لم يُقبل الأنبياء على الجدل والمراء والنقاش، و لم يهتموا بالأسلوب الفلسفي، إذ لم تؤد هذه الأساليب –لا في الماضي ولا في الحاضر– إلى هداية أي شخص، ولا إلى تقديم أي فائدة للإنسان، وقد صانهم الله تعالى من الانشغال بأي عبث، ومن ثم كانت مهمتهم في التبليغ تنحصر في الدعوة إلى الله بالحكمة وبالموعظة الحسنة.

إن الإنسان ليس عقلاً وفكراً فقط، بل له قلب وروح... فيه سرّ وخفيّ وأخفى... وكل لطيفة من لطائفه تحتاج إلى إشباعها؛ ومن هنا يتناول الأنبياء الإنسان بكل جوانبه محاولين إشباع جميع هذه الأحاسيس والمشاعر عند قيامهم بمهمة الدعوة. وهذه الدعوة التي لا تُهمل أيَّ جانب من جوانب الإنسان وأي شعور من مشاعره أو لطيفة من لطائفه تفضي في النهاية إلى إزالة جميع الشبه أمام الإنسان المخاطب ليصل إلى وحدة الإيمان التي هي غاية الوجود الإنساني.

إن الذين يتخرجون من مدارس الأنبياء يحملون إيماناً متميزاً ويقيناً ثابتاً؛ فأعينهم التي تُطلّ على العالم تنفتح بجانبها بصائر أخرى يرون بها ما لا يرى الناس. فلو امتلأت الدنيا بالشبه والشكوك لَما أثّرت فيهم ولَما أثارت لديهم سوى مشاعر الإشفاق؛ لأن هذه الشبه والشكوك لا تستطيع النفوذ إلى ضمائرهم وقلوبهم المملوءة بالمعرفة الحقة والعلم اليقين. والله تعالى يبارك علمهم ويضاعفه لهم ويعلّمهم ما لم يكونوا يعلمون.[1] فنسيم الإلهام السماوي يهبّ على قلوبهم فيحوّلها إلى سماء؛ وعندما يعمل هؤلاء بما يعلمون يجدون أنفسهم على مركب "الكلمة الطيبة" المنطلقة في أبعاد السماء.. فتسمو بهم وترقَى...[2]

حتى إنه ينشأ من بينهم شخصٌ مثل علي بن أبي طالب ﷺ الذي قال: "لو كُشف الغطاء ما ازددتُ يقيناً"[3]. أي لو رفع ستار الغيب وشاهدت كل ما يمكن مشاهدته لما كان هناك احتمال وصولي إلى مرتبة أعلى في الإيمان والمعرفة، ذلك لأنني على يقين بأني في ذروة الإيمان بالغيب.

وهذا الكلام الذي قاله رجل كعلي بن أبي طالب ﷺ هو من باب التحديث بنعم الله، وقد أعلنه رسول الله ﷺ -بتقدير من الله- أباً للأولياء حتى يوم القيامة، فقد رباه في كنفه وزوّجه أفضل النساء وأجملهنّ وأظرفهنّ وزهرة حديقة النبوة التي فاقت الحور العين في جمالها وهي ابنته فاطمة رضي الله عنها.

---

(١) انظر إلى هذا الحديث: «من عمل بما يعلم ورثّه الله عِلْمَ ما لم يعلم.» («حلية الأولياء» لأبي نعيم ١٠/١٥)

(٢) انظر: ﴿إِلَيهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرفَعُهُ﴾ (فاطر: ١٠).

(٣) «الأسرار المرفوعة» لعلي القاري ص١٩٣

ومن هذا الزواج المبارك جاء ريحانتا الجنة الحسن والحسين، ومن هذا النسل المبارك جاء جميع الأولياء وجميع الأقطاب. ومثلما كان علي ﷺ بهذه المنزلة، فإن كل حلقة من حلقات سلالته، وكل حفيد من أحفاده يعد كل واحد منهم مثال البطولة في التاريخ؛ ولا يَبلُغ هذه المرتبة إلا منْ بلَغ مرتبة الإحسان بإيمانه وإسلامه، وعند ذلك يكون من الذين تَصدُق عليهم هذه الآية الكريمة وهم في الدنيا ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق: ٣٣).[1]

وهذه الفراسة التي يُطلق عليها الغربيون اصطلاح "Sihashsti" عندما تبدأ بالعمل داخل الإنسان ينقطع عمل العالم الخارجي عنده، حيث يستولي عليه هذا الإلهام الداخلي وقابلية الحدس؛ ذلك لأن الحقيقة آنذاك تكون قد استقرت داخل النفس فما الحاجة إلى البحث عنها في الخارج؟ والنبي ﷺ الذي سما بطلابه وجعلهم يبلغون هذه المرتبة العالية كان قد اتخذ من الموعظة الحسنة أساساً في دعوته وفي بنائه للنفوس.

وما نحاول نحن أن نشرحه في هذا الصدد قامت هذه الآية الكريمة ببيانه بأوجز صورة وأعمقها ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٥١).

وإننا نرى من الأفضل عدم الإطالة هنا؛ لأننا قمنا بإيراد الأمثلة حول مدى اهتمام رسولنا الكريم ﷺ ومدى حساسيته في هذه الناحية. ولكن إن أردنا تلخيص الموضوع في جملتين أو ثلاث فيمكننا أن نقول:

---

(١) مسلم، فضائل الصحابة، ٦١

لقد كان ﷺ يخاطب كل إنسان حسب مستواه العقلي ووضعه النفسي دون زيادة ولا نقصان، وبأسلوب حكيم بحيث لا يترك ذلك الإنسانُ مجلسه إلا وهو مطمئن القلب مكتسب الإيمان. وكثير من الأشخاص الذين عاندوا في الإيمان كأبي جهل والوليد بن المغيرة وعُتبة بن ربيعة كانوا أسرى غرورهم وعنادهم، وبعضهم أسرى خوفهم، أي أن سبب الإنكار كان يعود إليهم وليس إلى أي قصور في طريقة تبليغ الرسول ﷺ. وكان منهم -مثل الشاعر الأعشى- مَنْ قَبِل كل شيء إلاّ أنه لم يكن يستطيع التخلّي عن كل ما ألفه سابقاً من عادات، لذا طلبوا منه إمهالهم، ولو مات أحد من هؤلاء قبل وصولهم إلى الهداية التامة لكان معنى ذلك أن كتاب القضاء والقدر سبق إليهم؛ وهنا أيضاً لا نجد قصوراً أو إهمالاً في التبليغ عند رسول الله ﷺ.

هـ . الدعوة إلى التوحيد

قام الأنبياء جميعاً بدعوة أقوامهم إلى توحيد الله تعالى ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(هود: ٨٤). فكل دعوات الأنبياء تبدأ بالدعوة لهذه الحقيقة وتنتهي بها.

واتفاق كل هؤلاء الأنبياء على هذه الحقيقة رغم اختلاف أزمنتهم وأماكنهم وبلدانهم يدل دلالة قاطعة لا شبهة فيها على أن هذه الحقيقة ليست من بنات أفكارهم. بل هي الرسالة التي بلّغتهم من ربهم وأُمروا بتبليغها للناس، إذ لا يعقل أن يتفق أناس لهم قابليات مختلفة واستعدادات مختلفة وعاشوا في أزمنة مختلفة وفي أمكنة مختلفة... أن يتفقوا مثل هذا الاتفاق في موضوع واحد. فلو تتبعتَ أيَّ مدرسة فلسفية أو فكرية معينة لرأيت خلافات واسعة حتى في الأمور الثانوية والفرعية بين أنصار هذه المدرسة، مع أنهم يعيشون في عصر واحد وفي بلد واحد.

وهذه الاختلافات الموجودة في التيارات الفكرية الإنسانية، وهذا الاتفاق في النظم الإلهية التي جاء بها الرسل بالوحي الإلهي تدلاّن على أن الهوى هو المنبع في الأولى، والوحي هو المنبع في الثانية.

أجل، إن إجماع الأنبياء على حقيقة التوحيد من خصائص مقام النبوة. يقول رسول الله ﷺ: «أفضل ما قلتُ أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له.»[1]

---

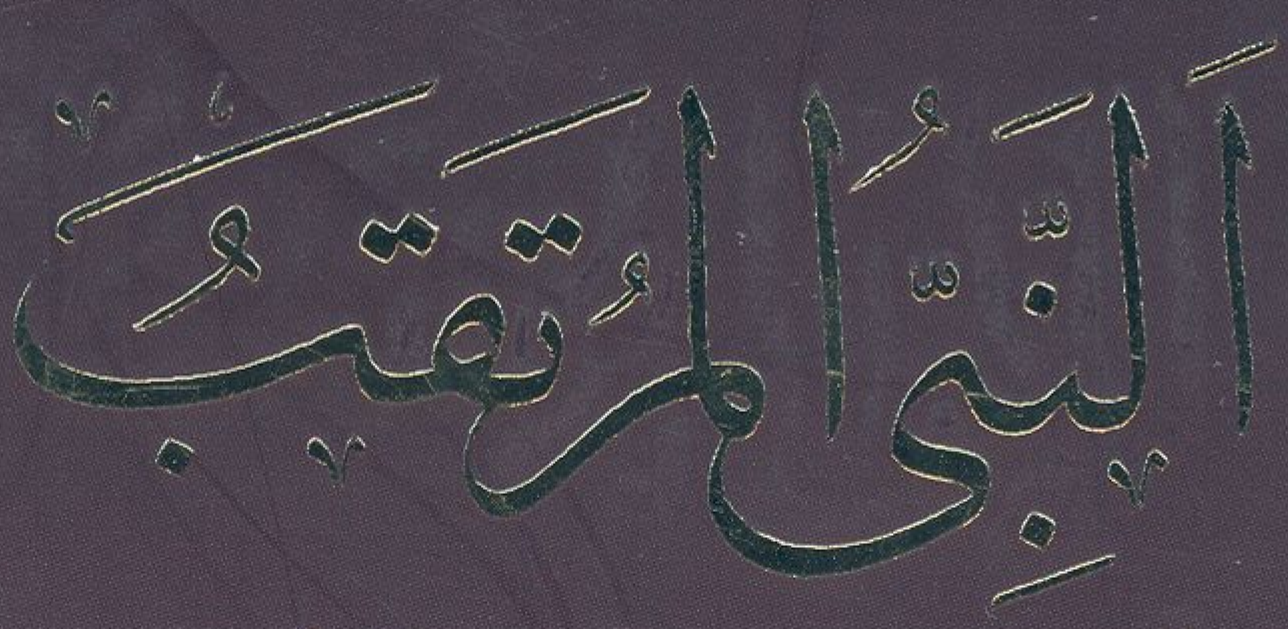
(١) الموطأ، القرآن، ٣٢، الحج، ٢٤٦؛ «كنز العمال» للهندي ٥/٧٣

تم الجزء الأول من سلسلة النور الخالد

ويليه الجزء الثاني وهو

" من صفات الأنبياء ومكانتها من سيد الأصفياء "

فهرس



إنه ﷺ فخر البشرية جمعاء. فمنذ أربعة عشر قرنا يقف وراءه أكبر الفلاسفة وأعظم المفكرين وأشهر العباقرة وأذكى رجال العلم الذين زينوا سماء الفكر عندنا... يقفون وراءه خاشعين قد عقدوا أيديهم أمامهم وهم يخاطبونه ويقولون له «أنت الإنسان الذي نفخر بانتسابنا إليه».

إن الزمن يتقادم ويشيخ وإن بعض المبادئ والأفكار تتعفن وتتهاوى. أما منزلة الرسول ﷺ فستبقى متفتحة في الصدور كأكمام الورود العبقة أبد الدهر، وستبقى نضرة في القلوب على الدوام.

أجل! فلو عرفته البشرية حق المعرفة، وفهمته حق الفهم لهامتْ به حبا ووجدا. ولو تغشت الأرواحَ ذكراه الجميلة لثارت أشواقها وفاضت ع... بالدموع ولاقشعر جلدها وهي تخطو... عالم النبوة الطاهر.

المؤلف:
محمد فتح الله كولن

المترجم:
أورخان محمد علي

دار النيل
للطباعة والنشر

ISBN 975-315-173-X
